قصص قصيرة

مطربة الغروب ..

جمال الغيطانى

مركز الحضارة العربية

مطربة الغروب

المؤلف : جمال الغيطاني

الإخراج الداخلي : محمد الغليوني

الطبعة الأولى : يناير ١٩٩٧

الناشر : مركز الحضارة العربية

الجمع والصف الالكترونى :

٤ شارع العلمين - ميدان الكيت كات - جيزة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨

رقم الإيداع : ٩٦/٧١٤٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-5121-89-2

متن تأسيسي

مطربة الغروب ..

مطربة الغروب

إليـهـا إنتـهى أمره بعـد طول إمعـان فى هجـاج ولجج . منهـا بدأ مـعـراجه فكانت مصدر إضطرابه وعين فرحه ومجمع آفاق تهلله وبؤرة إنفراجه .

عندها بدأ سفره .

المسافر لا يطمئن أبداً .

دائماً مشوش

حذر

قلق لتبدل المواضع وتغير الوجوه

جاهل بمصادر الأصوات

والمواضع التى تؤدى إليها المفارق ، والنواصى . والمضايق

أعظم ما يقضه الأمل فى الوصول .

الرسو

ليست هى إلا عين مستـقره . وموضعه الآمن بعد عمر مديد أمضاه فى طواف الآفاق ، وشـهوده الشـروق والغـروب من أماكن شتى ، من ثبات . من حركة ، من علو ، من سفل ، بعد مروره بلحظات ظنها الأبدية ، وأخرى أيقن أنهـا مخـتـتـمـه ، لكنه لم يدرك إلا فـيمـا بعد أن سـائر المشـاق ، والمكابدات ونوبات الحنين ، ولحيظات الشجى ، والندم .. سيصب هذا كله عندها .

أنه سيودع أيامه بما حوت فى أفق نظراتها .

الأمر غريب . يندر سماع مثله . البدايات المؤدية عديدة ، لكن معظمها محير ، غير دال . أحياناً .. يكون اللجوء إلى القصى النائى ، مساعداً على القرب ، لذلك فلنتبعه .. إذ أن أول ما يرد عليه تلك الأبسطة . لولا سداها ولحمتها ونقوشها ، لولا بذله سنوات عمره فى إتقانها ، تعلمها وتعليمها لما عرف الطريق إليها ، لما انتظم فى مدارات أنوثتها .

الأمر يحتاج إلى تفصيل ، ولو بدأنا من نقطة تمحوره لاستغلق كل شيء ، ولوقعت العكوسات ..

* * *

أبسطة

عندما قصد مدينة إخميم أول مرة الواقعة شرق النيل بالنسبة لمن يقيم فى الغرب ، حيث مدينة سوهاج والبلينا وجهينة وأبيدوس وغيرهم من المنازل والديار وكثافات النخيل الضاربة فى القدم .

جاء إخميم التى سمع وقرأ عنها وارتبطت عنده بصناعة الحرير الطبيعي، قدر ما سيمضيه بساعتين أو ثلاث يؤدى مهمته ، يعود بعدها إلى الفندق الهادئ ، المتواضع ، الذى يمكن رؤية النيل وجريانه من شرفاته وإن لم تطل عليه مباشرة .

قبل عبوره النيل إلى الشرق ، إلى إخميم ، أمضى ساعتين يراجع الأوراق المتعلقة ، يخطط للمقارنة بما سيلقاه ، يدقق فيما يعنيه ، تلك التصميمات التى رسمها عبر ست سنوات ، ثم وزعت للتنفيذ ، أعوام عديدة أمضاها فى

استيعاب الطرز المختلفة ، مكوناتها ، معالمها ، زخارفها المتوارثة . العناصر التي تُمكّنه من معرفة الأصيل من الزائف ، أوفد إلى آسيا الوسطى ، لم يكن له خيار ، تماماً مثل التحاقه بمدرسة الفنون والصنائع ، قصد بخاري بعد جولة واسعة مهمته الأساسية معاينة طرق صباغة الصوف باللون الأحمر الياقوتي في سجاد بخارى ، وتعيين الدرجة الفارقة عن لون سجاد تركمانيا ، الدرجتان متقاربتان . كذلك الأشكال الهرمية ، والمستطيلات النحيلة المتوازية ، التشابه قوى لكن من يتقن معرفة الأصول سيدرك أن الفروق شاسعة، ثلاث سنوات أمضاها في تلك الديار ، يجوس خلالها ، ينزل ضيفاً على قبائل لم تعرف الاستقرار إلا منذ سنوات قريبة ، يتوارث أفرادها طرق جز الصوف وغزله وتنظيفه وتخزينه وإعداده للصباغة ، يحفظون الزخارف ، يتوارثونها شفاهة ، لا يخطونها على أي نوع من الورق ، يلقنون الأبناء والأحفاد أشكالها وطقوس رسمها ، لا يزعم أنه أتقن هذا كله ، لكنه ألم بمعظمه ، قرب انتهاء مدته قال له شيخ تركماني أمضى عمره في صباغة الخيوط :

"أفضينا إليك بما لم نكشف عنه لغيرك .. فصنه وارحل راضياً .." هل لذلك القول صلة بما جرى له فيما بعد ؟ بما لقيه عندها ومنها ؟ لا يدرى .. لكن ، لماذا يستعيد ملامح هذا الشيخ البدين القصير مستدير الوجه ؟ لماذا يتذكر كلماته المتأنية كلما دنا منها .. عند مثوله أمامها ؟

لا يمكنه القطع ، أو الجزم بشيء ، ما من يقين عنده سواها ، وما من معنى راسخ غيرها ، بعد عودته التحق بعمل في مبنى قريب من النيل لحظة مروره بالقاهرة ، في الطابق الرابع منه أمضى سنوات يرسم تصميمات الأبسطة التي يجرى نسجها في وحدات انتاجية موزعة على أقاليم مصر . تخصص في البخاري والتركماني ، كما أتقن الكرمان والطاشان والتبريزي ، ولأن البخاري أصعبها خاصة في ضبط الألوان ، وطريقة النسج الفريدة شرع في كتابة مذكرات يطالب فيها بتخصيص وحدة لا تنتج إلا هذا الطراز ، بعد عشر

سنوات استجاب أصحاب الأمر ، حددوا مدينة إخميم لوجود مبنى مناسب تبرعت به المحافظة ، سر وابتهج لعلمه بدراية أهلها ، وإتقانهم صناعة الحرير على الطريقة القديمة ، وإطلاعهم على أسرار الصباغة ، صحيح أن الصوف جنس مغاير ، لكن المنطلق واحد .

سافر مراراً ، أربعة وعشرين إلى الخارج ، ستة عشر إلى دول المشرق ، وثمانية إلى بلاد الغرب ، رافق الأبسطة النادرة فى المعارض ، واطلع على إضافات هنا وهناك ، وشارك فى تقييم سجاد عتيق اختلف أهل الخبرة فى أمره ، كثيراً ما أُعتُبِرَ تقديره فاصلاً ، حاسماً ، لا يمكن إحصاء مرات رحيله داخل موطنه ، لكن يمكن القول إنه لم يمر أسبوع إلا ويسعى صوب مدينة أو قرية أو نجع ، أما سفره إلى إخميم فمغاير ..

* * *

جنوب

التفسير صعب ، والإيضاح مستحيل ، أشواق غامضة ، بقايا مضامين فى طريقها إلى اندثار تام .

كيف الشرح ؟

هل يمكن رؤية النور ؟

اسم غريب ، مثير للتأمل ، للتطلع صوب المجهول ، يستثير لحيظات فانية لا مرجعية لها ، لكن مجرد استدعائها يحدث عنده أمراً ، تنزل ساحته حالة من حنين محض ، مقلقل ، واعد ، خاصة عندما يولى الوجه جنوباً ويوغل عبر

ظلال النخيل ورائحة أشجار التين .

هناك .. سعت هي ، تنفست وتطلعت وتأملت واشتاقت وشوقت ورددت تعاويذ الغروب ، و أغمضت عينيها على رقادها الذى طال . كيف لم يطلع على ما يخصها قبل إدراكه لها مع أنه مُلم ؟

أول مرة قصد المدينة سلك الطريق عينه ، حتى إذا قارب البيوت والسوق تصير مقابر المسلمين إلى يساره وبقايا المعبد الكبير إلى يمينه .

كان ذلك عام سبعة وستين ، سنة وقوع الهزيمة وحلول الغم ، ولأن المشروع خرج إلى التنفيذ فلم يوقفه أحد ، لم يصدر قرار بإرجائه ، بإلغائه ، كانت زيارته الأولى لتحديد الموضع ، لن ينسى تطلعه الأول إلى ساحة المعبد ، إلى أصداء التراتيل ، إلى ما تبقى من حضور الآلهة الغاربين .. أعمدة تبرز ، رأس تمثال من رخام ، لم يكن أى شيء من بهائها بدا بعد ، لماذا توقف إذن ؟ لماذا أطال النظر ؟ . قال مرافقه الشاب وقتئذ ..

"ترقد إخميم على آثار لا حصر لها ..

ثم قال :

"هذه المنطقة بالذات ..

ثم قال :

" يقول الأهالى إن هرماً يحتويها .. لكنه خفى ، لا يبدو إلا لمن أوتى معرفة وقدرة ..

التفت إليه ، بسط الشاب يديه

"الناس يتكلمون كثيراً هنا .."

لم تكن هناك أى إشارة إلى وجودها . إلى تمددها ، إلى رقادها ، إلى

كمونها ، لكنه يثق من تعلق بصره بذات الموضع الذى احتواها ، قال لصحبه

"إخميم مدن شتى بعضها فوق بعض .."

أشار إلى الأرض

"من يدرى .. ربما يسعى آخرون مثلنا تحت .."

قال بثقة ، لم يعد ينسب إلى الآخرين ..

"لكل منا أخ تحت .."

هذا ما يذكره من حديثه ، لم يحتفظ بمناقشتهما حول المكان ، الطرق الموصلة إلى المصنع ، إلى أماكن الصباغة ، والأسطح حيث تنشر الخيوط لتجف ، شوارع المدينة الضيقة ، واجهات البيوت المرتفعة . الطرق الصاعدة ، رجال يغزلون الصوف ، ساحة السوق ، مئذنة نحيلة سامقة ، بيوت من اللبن أو الحجر ، سماء دانية ، رائحة خبيز ، وقت ضام ، أصيلى حتى مع اشتداد الظهيرة ، واكتمال الغروب ، ومصير مرتقب ، يبدأ وينتهى عبر تلك الساحة .

* * *

إدراك

سبعة وثمانين ..

بعد عشرين سنة من زيارته الأولى . جاء إلى إخميم ، لم يعد رحيله ميسوراً ، صار يكلفه مشقة ، كما أن الأحوال تبدلت ، المؤسسة تفككت ، وتعددت تبعية منشآتها ، وحدات عديدة أغلقت ، تبدلت نظم العمل ،

واختفى معظم الصناع القدامى إما بالرحيل الأبدى أو التقاعد أو السفر إلى الأقطار النفطية ، حل جدد لا يعرفهم ولا يعرفونه ، لا يعنى ظهوره شيئاً عندهم ، معظمهم يجهله ، وكثرت الإعلانات عن مصانع ضخمة تنتج الأبسطة بوسائل آلية ، سمع عن محاولات تبذل لشراء تلك الوحدة المتبقية فى إخميم ، والتى ذاع صيت ما تنتجه من سجاد بخارى وتركمانى ، يُصدّر معظمه إلى أسواق متخصصة ، لا يمكن لخبير التمييز ، لا فى الخيوط ، ولا فى الوحدات الزخرفية ولا فى طريقة النسج .

قصد المدينة ماشياً على مهل ، مطرقاً ، خطاه أبطأ ، وحمله غير المرئى أثقل ، وفى هذه المرة رآها أول مرة .

ما بين جبانة المسلمين وساحة المعبد موضع مرتفع ، خاصة بعد إزالة الأتربة، مال إلى الأمام متشبثاً بالسور حديث البناء ، كان تمددها مهيباً ، منكفئة ، متطلعة إلى الأرض ، مستدعية أصولها الغاربة ، يبدو القائم الذى يسند ظهرها ، المثبت إليه ، لا .. بل إنه جزء منه بالحروف العتيقة الملغزة .

لا يذكر من تلك اللحظات إلا تكوينها الهائل الذى فاض على ما حوله . لمعة الحجر الخافتة ، ردائها الأزلى ، تاجها الملقى بعيداً عنها ، تذكر خبراً قرأه منذ فترة ينبئ الناس بظهورها .

لم يكن وقوفه أمامها يومئذ إلا بمثابة النبأ ، إدراكه أنها هنا ، أما الزلزلة فتفجرت فيما بعد ، كأن قوة غامضة أرجأت لحظة القلقلة التى بدأت ولم تنته، لم يشأ أن يكون واقفاً وهى منكفئة ، جمالها الكونى أقرب إلى التراب، أن يكون ساعياً وهى ساكنة ، مع أنها فى نومها أسمق وأشمل من كافة ما يحيطها ، هل يمكن القول أنها لم تسمح له ، لم تدعه وقتئذ ؟

ربما

يميل الآن إلى ذلك ، مثلها لا يمكن الدنو منها إلا بعد إدراك ، بعد اتخاذ

مراسم ، المرور بخطوات ، الوصول إلى رحابها يحتاج إلى مراحل ، اجتياز عتبات معظمها غير مرئى ، إلى فهم وتكوين ، بقدر الإلمام يكون الأثر وتمام الوصلة .

منذ إدراكه لها بالنظر لم تنأ عنه ، كانت تغيب وتظهر ، تختفى وتواتيه حيث لا يتوقع ، لكن .. هذا كله جانب ولحظة المثول أمامها واقفة فى جانب آخر ، وما حياته بكل ما حوت إلا مدرج مؤد إلى المطهر ، إلى حومة حولها ورفرفته بحضرتها ..

* * *

ملامح الأيام

لوجهها الضحى ، لإدبارها الأصيل ، لنظرتها تمام الصحو ، لرنوها الغروب وما ضم ، ليس عبثاً ذلك اللقب الملكى القديم .

مطربة إله الغروب ، مؤنسته عند غوصه إلى ما وراء الأفق ، ليس تعبيراً لغوياً ، أو وصفاً سامياً ، إنما هو وضع بين ، وأمر جلى لا يحتمله إلا ذوى الاستعداد والقدرة على الوصل والقبول بعد صلصلة ودمدمة .

جرى ذلك بتوقيت الخلق فى تمام العاشرة والثلث من صباح الاثنين أحب الأيام إليه وأغزرها طلاوة وأنصعها صبوحاً منذ كان طفلاً ، وقتئذ تخيل ملامح الأيام بصفات بشرية .

الأحد رجل متزن ، هادئ ، دائماً يمشى مدبراً ، يهم ليدرك شيئاً ما .

الاثنين جميل ، بهى الطلعة ، وسيم الوقت ، تمنى تكراره وسرعة حلوله .

الثلاثاء متجهم قليلاً ، جاد المظهر ، مقبل ، لكنه لا يومئ بتحية ولا يتوقف ، به رزانة بادية وتعقل .

الاربعاء متجهم ، هرم ، غامق ، ممتد ، ثقيل الإقامة ، بعكس الخميس قصير المدى ، للجمعة حضور أنثوى ، رزين .. لا يخلو من غواية ، ولأنه يوم عطلة ، تخف فيه الحركة وتخلو الطرقات تقريباً وتتعرى النواصى فإنه يخلف عنده الحنين، أما السبت فمنه إشراق غامض لا يمكنه استيعابه أو التعبير عنه.

إذن جرى اللقاء فى يومه المقبول ، الاثنين .

مآذن سامقة جديدة نبتت عبر الفراغ ، معظم البيوت أعيد تشييدها بطوب أحمر وخرسانة ، لكم تغير المشهد ، أما جبانة المسلمين فما تزال فى موضعها، وإن تردد كلام كثير عن ضرورة نقلها بعد انهيار جانب منها ملاصق للطريق . كشف عن قدم من تمثال هائل لرمسيس الثانى ، والدها ، من أنجبها وأطلق اسمها وتوحد بها ، تمثال يميل لونه إلى احمرار ، يؤكد أهل الاختصاص إنه الأضخم بين ما خلف على امتداد الوادى ، يقدر وزنه بألف طن ، لن يكشف عنه قبل تهيئة مشاعر الأحياء لنقل موتاهم ، هذا أمر صعب ، وعر ، يحتاج إلى معالجة .

إتجه إلى اليمين ، صوب الغرب ، الناس فى الجنوب ينسبون حركتهم إلى الجهات الأربع الأصلية فيقولون "فلان قبّل أو بحّر .. فلان شرّق أو غرّب"

هكذا غرّب تجاهها ، صوبها .

الأتربة أزيلت ، الساحة فى مستواها القديم . لذلك تبدو منخفضة عن اليابسة الحالية ، لوطئها لا بد من نزول عشر درجات ، أقيم جدار يؤطر المكان، تتناثر فى الفراغ أشكال قامت يوماً ، جرانيت ، رخام ، كتابات هيلوغريفية ، بقايا حروف ، لكن .. ما هذا كله إلا قطع سابحة فى الفراغ العظيم المحيط بها ، لكنها لا تحرف الأنظار عن المركز ، عن إشعاع ذلك

السديم الأنثوى العظيم ، كوكبة المهابة ، وفلك النشوة ، مصدر كل انفجار يعقبه خفر وغواية.

مع تقدمه صوبها يغيب كل ما عداها . خطاه إليها مغايرة لكل مشيه فى السنوات المولية من عمره ، كأنه مدفوع ، محمول شاء أو لم يشأ .

موقعها وسط ، مكوكب ، من هنا يبدأ قياس الاتجاهات ، من مركز صرتها ، شروع نهديها ، استداراتها البادية والخفية ، من يدها القابضة على الفرع المتوج باللوتس ، من نظرة عينيها التى لم يعرف مثيلاً لها ، لا فى العيون الحية التى طالعها عبر أيامه ولا فى لوحات المتاحف ، وثبات التماثيل الشهيرة .

ينتابه قبض وبسط معاً عند دخوله مدارها ، مع بدء احتوائه لها يبدأ على الفور احتوائها المقابل ، رغم إدراكه أنه اندماج غير متوازن ، غير متكافئ إلا أنه يستسلم ، يستوعبها بالنظر ، بينما إحاطتها به مستمرة ، شاملة لكينونته.

لا يمكنه القول بنظرة أولى ، ما بينهما متصل ، قديم ، كأنه تخلق فى رحمها ، ورضع من صدرها ، وتدثر بدفئها ، لم يكن رقادها طوال تلك القرون إلا فى دمه السارى .

قصد سماء عينيها ، جثا عندهما ، مع احتفاظه بالمسافة الفاصلة وصونه السر، آثر الكتمان ، عيّن العلامات التى تمكنه من العودة إلى النقطة ذاتها .

نظراتها تدركه أينما حل وسكن ، ليس ذلك متعلقاً به ، لكنه أصغى إلى من قابلهم فيما بعد ، أخبروه بما جرى لهم فكأنهم عبروا عنه ، تنوعت الرؤى لكن الجوهر واحد ، أدركه مس من غيرة لثقته أن فى الأمر خصوصية غير خافية تتعلق به .

تراجع ..

لم يولها ظهره ، لم يفعل ذلك .. لا فى تلك المرة أو فى المرات السابقة ، تراجع شاخصاً . متملياً ، مستنفراً ، يكاد يقف على ملمس بطنها ، رحبة بانخسافها ونزولها المتمهل إلى مفرق ركبتيها ، رغم ثوبها البادى ، المحدد ، إلا أن تضاريس جسدها الكونى بادية تماماً ، تتجاوز أى ساتر ، تؤجج رغبة خفية تثير الخشية والخجل !

قال صاحبه :

"تأثرت ؟"

أومأ مؤكداً ..

"كل من يراها تحدث عنده دربكة .."

بدا تعبيره فجاً ، مباشراً ، لكنه دال ، لم يعلق فلم يكن قادراً على المجادلة ، كان يستسلم للحظة يبلغ عندها الأسباب .

* * *

توسل

يا أميرة الغروب

يا مطربة الإله المتجه إلى الرقاد فى صمت الأبدية .

يا مؤنسة

يا مبددة كل وحشة

يا نافية السقم

يا مدركة كل معنى

لم يكن هجوعك طوال تلك القرون إلا للتأمل

انكفائك للنظر فيما لا يمكن للبشر إدراكه .

من الأرض جئت ، ومن السماء قبس لا ينفذ عندك .

يا أميرة ، يا ناهضة أبداً ، يا مصدر الأصائل والظلال واللحظات المنجية، لم تخلق الصخور التى اقتطعت صورتك هذه منها إلا لذلك الغرض ، ليس الجبل إلا إشارة إليك ، ولا يؤدى المجرى العتيق إلا إليك ، فيا من قطعت وحملت وحددت الخطوط والثنايا وبثثت أسرار البضاضة والفتنة وحاكيت ما لا يُحاكى .. لك المودة .

يا من سعيتم إليها ، من تفصلكم عن اللحظة بيد الأزمنة ، من يستحيل العبور إليهم ، من يستحيل وقوع البصر عليهم ، يا من أسهمتم ، فى هذا البيان الأنثوى ، ذلك الإشهار الكونى للجمال ، لكم الإخلاص والمنة ، هى التى جاءت بكم أجمعين ..

* * *

إنتقال

صار ضالعاً فى الوجوه بإدراكه لها ، اقتضى ذلك صيرورة مغايرة ، فى البداية كان مأخوذاً عنه ، مع وعيه الأتم بوصوله إلى حد فاصل بدأ يخطط

لأوضاعه .

عاد إلى غرفته فى الفندق الذى يحمل اسمها ، لكنه بدا مختلفاً وإن لم يقدر على تحديد مواضع المفارقة ، أطال التحديق إلى النيل السارى ، القادم منها والذاهب إليها ، عندها تلتقى الجهات الأربع الأصلية ، من صدرها الأسم تنبت المواسم وتلوح تباشير الخصب .

يتطلع إلى ضفتى النهر ،

فى بلدة جهينة بهذا الإقليم ، هناك عند الحد الغربى جاء ، تنفس لأول مرة، وأطلق صرخة الوجود ، عند نقطة لا يعلمها الآن ، وعلى صورة لا يدرى تفاصيلها سيفارق إلى الأبد .

به وهن ، عنده تعب ، وإدراك بالوصول عند الغسق والسفر لحظات الأصيل والإقلاع فجراً والحيرة أول النهار ، أما الرسو عندها فعين الوقت .

لم يمض على عودتها واقفة وقت طويل . حتى لحظته تلك محاطة بسنادات خشبية غامقة ، عتيقة كأخشاب السواقى ، تاج آمون مستقر الآن فوق ضفائرها وخصلاتها .

كل ما عندها يوحى بالنخيل، بالفراهة، البسوق، الثبات، اللامحدودية، سعفية الضفائر ، شروعها المستمر إلى أعلى .. هى والأفق صنوان .

لم يتمدد كعادته فترة ما بين العصر والغروب ، مكث صامتاً وعنده أزيز ، منذ أن بدأ لم يهن ، فارق الفندق قبل اكتمال الغروب ، لم تكن المرئيات كلها إلا تفاصيل بساط عتيق ، يشمل كافة الطرز والرسوم ، مؤد ، مفض إليها ، يمشى فيه وفوقه إليها ، لا يحيد ، لا يميل ، شاخص ، ساع ، عنده من المواجيد فائض ، لا يعبأ بفضول الخلق ، تطلعهم صوبه ، جل همه موجه إلى تمام مشروعه الذى لم يدرك تفاصيله بعد ،

مضى إليها بعد نزول الليل

هنا لابد من إشارة قبل التيه فى خضم الهواجم ، ما من مرة قصد رحابها إلا ويرى ما لم يطّلع عليه من قبل ، رغم ثباتها البادى فى فضاء إخميم لكنه لم يرها إلا سارية ، عابرة ، من جسر إلى جسر ، من ضفة إلى ضفة ومن لحظة إلى أخرى .

* * *

حضرة

يامطربة الغروب

يامؤنسة قرص الشمس إلى وحدته ، إلى وحشة المجرة وبرد المسافات .

يا شادية ، هل تشرق الشمس منك وتغرب فيك ؟

هل تدور حولك ؟

هل يستدل درب التبانة على مساره من حضورك ؟

منك يطق الشرر

وتنبثق النجوم

وتنتظم الكواكب

تحترق سائر المذنبات إذا لامست حواف شعرك

يا ملكية

يا سر أنوثة الكون

يا رحم البداية العظمى

بوابات جسدك منافذ إلى وجوه الحقيقة

يا سلطانة الغسق

تدورين بالوجود أم يدور بك

من البداية :

يا حضرة

من النهاية ؟

يا مصدر

يا حضور !

* * *

إصغاء

تتجه نظراتها غرباً ، ثم .. تؤدى إلى كافة الاتجاهات ، تتبع المرء أينما ولى ، إخميم تتدثر بالليل ، برائحة الخبيز ، بالنخيل ، بدقات المواكيك فى الأنوال الخشبية ، بانحناءات العمال على الخيوط الحريرية ، بالحيوات الساعية فى الأزقة ، بأنفاس البائدين .

تفيض على الجميع ببهائها ، تبث الطمأنينة عند الكافة ، لذلك يختلف الإيقاع هنا عن أى مكان آخر ، تتردد أصداء الزلزلة الغسقية ، تتوالى التجليات والرؤى ، لكل لحظة ملامحها ، ولكل هنيهة حضورها .

كينونتها الليلية مغايرة ، مشعة ، باعثة على تأجج الرغبة ، على الحنو ،

على الذوبان ، التلاشى ، على الاحتواء قدوماً وذهاباً ، على تضاريسها ، وعبر كون جسدها ، عند مئذنية قوامها السامق ، وتقبب ردفيها ، وآكامها البادية، ومضايقها المؤدية ، تفنى كل اللحظات ، تتوارى كافة الذكريات ، تندثر المكنونات ، تستبدل كل المعالم بفاعليتها . بوقفتها ، يتصل منها ذلك البهاء الديمومى الفاعل فيمكن لكل ذى بصر أن يراها من قرب ومن بعد ، أسمق من النخيل ، أرسخ من أعمدة المعابد ، قصدها ..

مثل بين يديها ، أصغى فى رحاب أنوثتها حتى أوشك على الإصغاء إلى كل همس ، تفسير أدق الأسرار ، ما كان ويكون منها . سعيها طفلة بين يدى والدها الأعظم رمسيس الثانى ، عبورها واكتمالها من لحظة إلى أخرى . تمام فوراتها ، خفق ثناياها ، ذرى أفراحها وانفراج نشواتها ، تيسر أمورها ، أحلامها التى تراءت لها ، وصور غفواتها .

لحظة الشروع فى نحت هذا النصب الذى أطلعنا على ما كان ، أبقى جسر الوصل مفتوحاً بين أزمنة متباعدة ، بين خطوطها وكل متلق ، خطوط لا تصدر إلا عن عاشق راغب ، أو مؤمن عابد ، وكلاهما واحد ، تدفقت تروى المشاهد كافة ، جاهد محاولاً استدعاء كافة الرؤى التى انعكست عبر هاتين الحدقتين ، توجههما فوق انبساط الوادى وخضرته ، تخللهما سعف النخيل ، تجاوزهما قمم المسلات ، والأهرام وسطور المتون ، وكل بيان .

لم تكن عودته هذه المرة مشابهة للمرات السابقة ، سنوات طويلة يزور إخميم ، يرجع إلى القاهرة حيث يقيم ، لكنه فى هذه الرحلة يدرك ما يخلخل مساره الرتيب حتى الآن رغم أسفاره وتعدد مرات رحيله .

خلال اندفاع القطار أو توقفه بمحاذاة الأرصفة والمبانى الخشبية ، عند عبوره الجسور والقناطر ، طالعها ، رآها مبثوثة فى الفراغ ، أينما ولى وجهه يدركها وتلحقه .

يا رحم البداية العظمى

بوابات جسدك منافذ إلى وجوه الحقيقة

يا سلطانة الغسق

تدورين بالوجود أم يدور بك

من البداية :

يا حضرة

من النهاية ؟

يا مصدر

يا حضور !

* * *

إصغاء

تتجه نظراتها غرباً ، ثم .. تؤدى إلى كافة الاتجاهات ، تتبع المرء أينما ولى ، إخميم تتدثر بالليل ، برائحة الخبيز ، بالتخيل ، بدقات المواكيك فى الأنوال الخشبية ، بانحناءات العمال على الخيوط الحريرية ، بالحيوات الساعية فى الأزقة ، بأنفاس البائدين .

تفيض على الجميع ببهائها ، تبث الطمأنينة عند الكافة ، لذلك يختلف الإيقاع هنا عن أى مكان آخر ، تتردد أصداء الزلزلة الغسقية ، تتوالى التجليات والرؤى ، لكل لحظة ملامحها ، ولكل هنيهة حضورها .

كينونتها الليلية مغايرة ، مشعة ، باعثة على تأجج الرغبة ، على الحنو ،

على الذوبان ، التلاشي ، على الاحتواء قدوماً وذهاباً ، على تضاريسها ، وعبر كون جسدها ، عند مئذنية قوامها السامق ، وتقبب ردفيها ، وآكامها البادية، ومضايقها المؤدية ، تفنى كل اللحظات ، تتوارى كافة الذكريات ، تندثر المكنونات ، تستبدل كل العالم بفاعليتها . بوقفتها ، يتصل منها ذلك البهاء الديمومي الفاعل فيمكن لكل ذى بصر أن يراها من قرب ومن بعد ، أسمق من النخيل ، أرسخ من أعمدة المعابد ، قصدها ..

مثل بين يديها ، أصغى فى رحاب أنوثتها حتى أوشك على الإصغاء إلى كل همس ، تفسير أدق الأسرار ، ما كان ويكون منها . سعيها طفلة بين يدى والدها الأعظم رمسيس الثانى ، عبورها واكتمالها من لحظة إلى أخرى . تمام فوراتها ، خفق ثناياها ، ذرى أفراحها وانفراج نشواتها ، تيسر أمورها ، أحلامها التى تراءت لها ، وصور غفواتها .

لحظة الشروع فى نحت هذا النصب الذى أطلعنا على ما كان ، أبقى جسر الوصل مفتوحاً بين أزمنة متباعدة ، بين خطوطها وكل متلق ، خطوط لا تصدر إلا عن عاشق راغب ، أو مؤمن عابد ، وكلاهما واحد ، تدفقت تروى المشاهد كافة ، جاهد محاولاً استدعاء كافة الرؤى التى انعكست عبر هاتين الحدقتين ، توجههما فوق انبساط الوادى وخضرته ، تخللهما سعف النخيل ، تجاوزهما قمم المسلات ، والأهرام وسطور المتون ، وكل بيان .

لم تكن عودته هذه المرة مشابهة للمرات السابقة ، سنوات طويلة يزور إخميم ، يرجع إلى القاهرة حيث يقيم ، لكنه فى هذه الرحلة يدرك ما يخلخل مساره الرتيب حتى الآن رغم أسفاره وتعدد مرات رحيله .

خلال اندفاع القطار أو توقفه بمحاذاة الأرصفة والمبانى الخشبية ، عند عبوره الجسور والقناطر ، طالعها ، رآها مبثوثة فى الفراغ ، أينما ولى وجهه يدركها وتلحقه .

لا تلق بمن سعى إليك بعيداً فيضل ، فيهلك

لا تجذبيه إلى حد يحترق فيه ويصير نسياً منسيا

كونى رحيمة

كونى سخية

أنت البداية والنهاية

* * *

احتواء ..

لم تكن الليلة التى أمضاها فى الفندق إلا وقفة تسبق وثبة ، يسرى نهر النيل من الجنوب إلى الشمال عكس أنهار الدنيا ، ترحل أشواقه حاضره الكائن إلى ماضيه المنعدم ، يفيض بمشاعر يعسر توصيفها ، لم يسبق مروره بها أو مروره بها .

يستدعى من مكنون وعيه نثار عبادات عن أحوال المسافرين إلى الأبدية ، اشتياقهم إلى رؤية الأهل والصحب والمألوفات والسعى للطواف بالمواضع المقترنة بلحظات ذات دلالة ، خاصة المكان الذى وفدوا عنده إلى هذه الحياة الدنيا .

غير أنه لم يرحل إلى مسقط رأسه مع أنه قريب من ساحتها ، لا يحتاج لبلوغه إذا بدأ من عندها إلا ساعة زمن . أغمض عينيه واستدعى كافة ما يقدر عليه . جال بطرقات جهينة فى لحظة واحدة ، وجمع بين أوقات متفرقة فى صورة ملحة لناصية أو سوق أو سطح بيت عند الظهيرة ، تلك السواقى

العامرة والمهجورة ، أشجار الدوم والنخيل والنبق والتين وحوض ماكينة الرى ، وذرات الدقيق عند ماكينة الطحين وسكون الليل الغميق والنداءات المجهولة ، حفرة البئر الجافة ، فى طفولته عميقة جداً واسعة جداً ، رادعة ، باعثة على الخشية والإنثناء ، فى شبابه مرّبها ، رآها ضئيلة لا تبعث على خوف ، ولا تثير مخيلة ، ولا توحى بأى عفاريت مؤذية ، أو جن مؤمن .

لم يرحل إلى لحظات الظهيرة ، وإتقاد رائحة الخبيز ، وملمس الأرغفة الممتلئة الساخنة الطرية ، ولسعة اللبن الرائب ، إلى رائحة التقلية عند الغروب، وطشيش اللحم إذ يتقلب فى الماعون الساخن .

لم يرحل إلى تدفق القمح من فتحة الصومعة الدائرية ، وعيدان البوص الجافة ، وملمس الأجولة الفارغة أو الممتلئة ، وأصوات الليل الغامضة عند أطراف الحقول ..

حاول استدعاء هذا كله ، توقف عند لحظات ظنها بادت ، ونقوش أبسطة رآها معلقة فى صالات عرض بعواصم نائية ، ودرجات ألوان أجهد نفسه للوصول إليها ، وهمس صادر عمن لا يعرفهم ، وأضواء ليلية منبعثة من بيوت لم يدخلها قط ..

جاهد فى احتواء تراثه كافة ، وقصد إليها ..

* * *

نثــار

أسعى

أملى موضع ما .. بين عينيك ، الجثو عند أركانك الشتى ، الاستغاثة

باستداراتك ، بانبساطاتك ، بتضاريسك ، بضفافك .

آه لو أستكين عند تلك المسافة ما بين حاجبيك وعينيك .

لا يردعني إلا التهيب ، الاستجابة لنظراتك الشروقية ، الغروبية ، المتجاوزة كل الأكوان ، لكنني .. ماذا أفعل بما تحويه من دعوة إنسانية ، يا قدسية ، يا أنسية ، يا فوقية ، يا تحتية ، يا من جمعت الجهات كلها فى جهة واحدة ، هى أنت أنت ، أعرف الاستحالة فأتخذ من النظر جسراً ، أرتوى عبر البصر ، أرضى بالخاطرة ، أتواصل عبر القرون الفاصلة ، المؤدية .

أكاد أصغى إلى دفقات نبضها ، إلى تأججاتها ، إلى تفتح رغباتها ، إلى تقلباتها بين البلاد والعصور .

لا أبالى فضول الخلق ، ظهورى أمامهم من حيث لا يدرون ، لا أعبأ بطاردة الحراس ، بفضول الصبية ومضايقاتهم ، وقد كانوا يوماً يرتعدون لمجرد مرورى أمامهم .

أقطع ليلى بمواجهتها ، أجتهد لإلقاء ذاتى فى مسار نظراتها ، طرقت كافة الوسائل ، كل السبل ، شيعت الرسائل الناطقة ، والمكتوبة لأضمن بقائى على مقربة ، حتى صار أمرى مألوفاً ، ظنوا بى الخلل والجذبة .

أكنس الرمال ، أفرز الحصى ، أستبعد الشوائب ، يجب أن تعود الساحة المحيطة بها إلى شفافيتها ، إلى مهابتها الطالعة ،

انتظمت فى أداء مراسم الخدمة .

أشفق علىّ القوم بعد أن رأوا منى وداً ، وأنسوا أمناً ، تركونى ، أحياناً يجىء غرباء ، يشيرون إلىّ ، يسدد بعضهم آلات تصوير بأحجام شتى ، يخاطبونى ، فلا أجيبهم إلا بلسانها ، بكلماتها ، بحروفها هى ، كنت أرقبهم بعناية ، أتدخل فى اللحظة المناسبة إذا تطلعوا إلى نقطة لا يعلمها غيرى ،

سأتجه صوبها عندما يرد الإذن وتلوح البشارة .

لكن لو سبقنى غيرى ، فلن أنال ما أسعى إليه .

أن أتوحد بها ، أصبح ذرة من تكوينها ، أولي البصر أينما ولت ، أتقلب معها عبر الأزمنة ، ونتفرق رماداً بين النجوم ..

١٩٩٤/٧/٢

حلوان

.. لمدة أربعة أيام أو خمسة لم يلفت غيابه نظر الرواد المترددين بانتظام على المقهى ، حتى العاملين فى ورديتى الصباح والمساء ، والمعلم رشدى صاحب المقهى وشقيقه بلال الذى يحل مكانه يومى الخميس والجمعة بسبب سفر المعلم إلى مسقط رأسه بمحافظة المنوفية لأسباب لا يعرفها أحد .

رغم الاهتمام الذى كان يحيطه عند ظهوره ، رغم جلوسه منفرداً ، متوحداً، نائياً عن الجميع ، ومفارقة المعلم مكانه وتقدمه نحوه وعلى وجهه ملامح ابتسامة خفية تحوى قدراً من سخرية ، كان الدكتور يتطلع إليه بحذر وتحد أو ملامح جامدة منذرة بالغضب إزاء أى محاولة لتجاوز الحد ، لكن لم يحدث ذلك إلا نادراً وفى حالات معينة تنتاب المعلم خلالها موجات من المرح مجهول الأسباب يعقبها صمته الذى قد يستغرق أياماً وإطراقه الساعات الطوال حتى فى ذرى الزحام الليلى وتزايد الرواد ، كان يتقدم الدكتور وهو يصيح بصوت مرتفع :

"شيشة حمى وقرفة باللبن للدكتور يا جدع .."

ثم ينظر إليه متسائلاً عن الصحة ، ماداً يديه أو إحداهما ، غير مبادر لحمل المجلد الأسود الضخم الذى يحمله منذ ظهوره فى المقهى أواخر الستينيات . يعرف الجميع عاداته ، حرصه على ألا يمس هذا المجلد أى إنسان والذى أصبح معروفاً من تعليقاته المقتضبة العابرة أنه رسالة علمية مقدمة لنيل درجة دكتوراه أو ماجستير، وأنه يقرأها بدقة لأن مستقبل كاتبها يتوقف على رأيه، وأنه دقيق جداً فى مناقشة طلبته، لكنه لا يقسو ولا يتجنى. كان عند ظهور النادل مقبلاً نحوه حاملاً النرجيلة أو الصينية وفوقها كوب القرفة يتطلع قلقاً ، حذراً ، منبهاً إلى المجلد الضخم الذى يخشى عليه انسكاب المشروب ، أو تطاير نقطة ماء ، لم يكن يفتحه قط ، إنما يضعه أمامه على

مقربة ، يتطلع إليه وقد يلمسه مرة أو مرتين ، يقول إنه سوف يناقش هذه الرسالة الأسبوع القادم ، أحد العمال ، وكان متخصصاً فى تقديم النرجيلة ، ورص الجمرات فوق التنباك ، أبدى استخفافاً وفى أحد أيام الخميس التى يسافر فيها المعلم ، توقف أمام الدكتور بعد انتهائه من ضبط النرجيلة والتأكد من ثبات الحجر ، تطلع إليه مبتسماً بينما يده تلامس خصره ، لم ينصرف على الفور كعادته ، إنما صاح بصوت مرتفع فيه استهانة ..

"دكتور جبالى .."

تطلع إليه دهشاً ، عيناه متوجستان ، مستنفرتان ، ازداد جحوظهما من خلف زجاج النظارة السميك ، قال مواصلاً :

" منذ سنوات وأنت تقرأ هذا .. ألم تنته منه ؟"

هل كان العامل يقصد إهانته ؟ هل أضمر السؤال زمناً ثم قرر أن ينطق به لحظة ضجر ، أم أنه أقدم على حوار عادى مثل ذلك الذى يتم عادة بين الزبائن، خاصة المترددين منهم بانتظام ، وتتخلله لمحات ساخرة ، أو بعض النكات ، وأحياناً الشتائم ، بالطبع لم يكن الحوار يتم هكذا إلا بعد طول عشرة وتعارف ، ربما افترض أن مجيء الدكتور يومياً تقريباً أمر يسمح له بتوجيه السؤال ، لكسر حدة الصمت الذى يغرق فيه الدكتور خاصة عندما يستغرق فى تدخين النرجيلة وبين الحين والآخر يتناول كوب القرفة بيد مرتعشة، يتضح ارتجافها مع اقتراب الحافة من شفتيه .

الحق أنه لم يتجاوز الحد كما يحدث مع حسنى الجزار ، أو كرم صاحب متجر التحف والإطارات القديمة ، بل يمكن القول أنه استناداً إلى ما رواه الشهود ، ومنهم اثنان من الزبائن العابرين أثناء تقصى صاحب المقهى لحقيقة ما حدث وماجرى ، أنه بادر بالسؤال كما يحدث دائما مع الذين اعتاد رؤيتهم وألف معاشرتهم ، بعد أن يضع أمامهم النرجيلة أو المشروبات يبدأ حوار

.. لمدة أربعة أيام أو خمسة لم يلفت غيابه نظر الرواد المترددين بانتظام على المقهى ، حتى العاملين فى ورديتى الصباح والمساء ، والمعلم رشدى صاحب المقهى وشقيقه بلال الذى يحل مكانه يومى الخميس والجمعة بسبب سفر المعلم إلى مسقط رأسه بمحافظة المنوفية لأسباب لا يعرفها أحد .

رغم الاهتمام الذى كان يحيطه عند ظهوره ، رغم جلوسه منفرداً ، متوحداً، نائياً عن الجميع ، ومفارقة المعلم مكانه وتقدمه نحوه وعلى وجهه ملامح ابتسامة خفية تحوى قدراً من سخرية ، كان الدكتور يتطلع إليه بحذر وتحد أو ملامح جامدة منذرة بالغضب إزاء أى محاولة لتجاوز الحد ، لكن لم يحدث ذلك إلا نادراً وفى حالات معينة تنتاب المعلم خلالها موجات من المرح مجهول الأسباب يعقبها صمته الذى قد يستغرق أياماً وإطراقه الساعات الطوال حتى فى ذرى الزحام الليلى وتزايد الرواد ، كان يتقدم الدكتور وهو يصيح بصوت مرتفع :

"شيشة حمى وقرفة باللبن للدكتور يا جدع .."

ثم ينظر إليه متسائلاً عن الصحة ، ماداً يديه أو إحداهما ، غير مبادر لحمل المجلد الأسود الضخم الذى يحمله منذ ظهوره فى المقهى أواخر الستينيات . يعرف الجميع عاداته ، حرصه على ألا يمس هذا المجلد أى إنسان والذى أصبح معروفاً من تعليقاته المقتضبة العابرة أنه رسالة علمية مقدمة لنيل درجة دكتوراه أو ماجستير، وأنه يقرأها بدقة لأن مستقبل كاتبها يتوقف على رأيه، وأنه دقيق جداً فى مناقشة طلبته، لكنه لا يقسو ولا يتجنى. كان عند ظهور النادل مقبلاً نحوه حاملاً النرجيلة أو الصينية وفوقها كوب القرفة يتطلع قلقاً ، حذراً ، منبهاً إلى المجلد الضخم الذى يخشى عليه انسكاب المشروب ، أو تطاير نقطة ماء ، لم يكن يفتحه قط ، إنما يضعه أمامه على

مقربة ، يتطلع إليه وقد يلمسه مرة أو مرتين ، يقول إنه سوف يناقش هذه الرسالة الأسبوع القادم ، أحد العمال ، وكان متخصصاً فى تقديم النرجيلة ، ورص الجمرات فوق التنباك ، أبدى استخفافاً وفى أحد أيام الخميس التى يسافر فيها المعلم ، توقف أمام الدكتور بعد انتهائه من ضبط النرجيلة والتأكد من ثبات الحجر ، تطلع إليه مبتسماً بينما يده تلامس خصره ، لم ينصرف على الفور كعادته ، إنما صاح بصوت مرتفع فيه استهانة ..

"دكتور جبالى .." .

تطلع إليه دهشاً ، عيناه متوجستان ، مستنفرتان ، ازداد جحوظهما من خلف زجاج النظارة السميك ، قال مواصلاً :

" منذ سنوات وأنت تقرأ هذا .. ألم تنته منه ؟"

هل كان العامل يقصد إهانته ؟ هل أضمر السؤال زمناً ثم قرر أن ينطق به لحظة ضجر ، أم أنه أقدم على حوار عادى مثل ذلك الذى يتم عادة بين الزبائن، خاصة المترددين منهم بانتظام ، وتتخلله لمحات ساخرة ، أو بعض النكات ، وأحياناً الشتائم ، بالطبع لم يكن الحوار يتم هكذا إلا بعد طول عشرة وتعارف ، ربما افترض أن مجىء الدكتور يومياً تقريباً أمر يسمح له بتوجيه السؤال ، لكسر حدة الصمت الذى يغرق فيه الدكتور خاصة عندما يستغرق فى تدخين النرجيلة وبين الحين والآخر يتناول كوب القرفة بيد مرتعشة، يتضح ارتجافها مع اقتراب الحافة من شفتيه .

الحق أنه لم يتجاوز الحد كما يحدث مع حسنى الجزار ، أو كرم صاحب متجر التحف والإطارات القديمة ، بل يمكن القول أنه استناداً إلى ما رواه الشهود ، ومنهم اثنان من الزبائن العابرين أثناء تقصى صاحب المقهى لحقيقة ما حدث وماجرى ، أنه بادر بالسؤال كما يحدث دائما مع الذين اعتاد رؤيتهم وألف معاشرتهم ، بعد أن يضع أمامهم النرجيلة أو المشروبات يبدأ حوار

سريع، فيه إيماءات وإيحاءات وسخرية من شيء ما ، لا يستمر طويلاً ، إذ لا بد أن ينتقل هنا وهناك ، يلبى طلبات هذا وذاك ، الوحيد الذى يطيل الوقوف وقد يجلس إلى الزبون بعض الوقت هو المعلم رشدى ، ويحدث هذا مع القدامى الذى يمكن اعتبارهم من الوجوه الثابتة ، بل إن بعضهم يمكن رؤيته صباحاً وظهراً ومساءً ، أما الدكتور فكان من الذين يصلون فى ساعة محددة لم يتأخر عنها قط ، تمام السابعة مساءً ، ولا يدرى المعلم ممن سمع أنه لا يطيق البقاء لحظة الغروب فى بيته ، لابد أن يخرج ، أن يتواجد فى الطريق ثم ينتهى إلى المقهى ، ويبدو أن ضيقاً يلم به ، أو سبباً غامضاً يدفعه إلى الخروج ، حتى لو كان نائماً ، أو متعباً ، لا يذكر المعلم أيضاً من قال أن عرافة غجرية خطت يوماً خطوطاً فى الرمال ورفعت عينيها صوبه مترددة ، فلما ألح عليها وضغط أنبأته بموته ذات غروب ينزل عليه فى بيته .

على الرغم من معرفة هذه الدقائق عنه ، إلا أن أموراً أساسية ظلت مجهولة عنه ، لم يعرفها أحد ، وكأن القوم آثروا أن يبقوها فى دائرة التخمين، وربما لعدم اكتراثهم به . لكن يمكن اعتبار هذا اليوم فاصلاً فى تردده ، ذلك أن رد فعله لم يكن متناسقاً قط مع سؤال العامل واستفساره عن قراءته المتصلة للمجلد ، ذلك أنه انتفض واقفاً ، متصلباً ، بادى التشنج ، فوجئ الجميع ، من يعرفه ومن لا يعرفه بصوته الضخم ، المتشنج ..

" احترم نفسك .."

مع ارتجاف شفتيه واصل ..

" انظر إلى من تتكلم ! "

اسرع بلال شقيق المعلم ، اقسم النادل أنه لم يفه بما يسىء ، وأنه تساءل فقط عن مدة قراءته لهذا الكتاب الضخم الذى يحمله منذ عدة سنوات ..

" اخرس .. لا تهين العلماء .."

كانت الإشارة إلى المجلد تشيره إلى حد ارتعاش أطرافه وارتجاف شفتيه وظهور الزبد فوقهما .

استدار النادل متطلعاً ، مستنجداً بالجالسين على مقربة ، ولكن بدوا جميعاً جامدين غير راغبين فى التدخل ، أو الشهادة ، كانوا غرباء ، وكما تقضى التقاليد فى مثل هذه الحالات يتدخل صاحب المقهى مبدياً اهتمامه بما جرى وتعاطفه مع الزبون ، وفى الغالب ينتهى الموقف بتوبيخ العامل ، أو التهوين مما جرى ، أو الاعتذار وإرغام المخطئ على تقبيل رأس الزبون والاعتذار له ، لكن إذا تجاوز الأمر حده ، وسمح الزبون لنفسه أن يوجه الإهانة الصارخة ، فإن صاحب المقهى يحاول تهدئته فى البداية ، ثم يعاتبه ، فإذا أمعن يجب عندئذ إظهار الشر والقسوة التى قد تؤدى إلى طرد المعتدى .. فللمقهى كرامته ، وللعاملين به أيضاً ..

من وجهة نظر بلال لم يكن الأمر يستدعى هذا كله ، وبرغم ذلك نهر النادل الذى كان شاباً فى حدود الثلاثين ، ما زال يحمل ذكريات قاسية عن مرحلة تجنيده التى امتدت أكثر من سبع سنوات بسبب الحرب ، وكثيراً ما كان يشير إلى فترة الحصار التى أمضاها فى الجيش الثالث . ويردد دائماً أن أياماً صعبة مرت به لم يتوقع ولم يتخيل خلالها أنه سوف يرى المقهى مرة أخرى ، طلب بلال منه أن يعتذر للدكتور ، وبينما النادل يردد الطرف بينهما فوجئ بالدكتور يعلن بصوت مرتفع أنه لن يضع قدمه فى المقهى إلا إذا تم فصل هذا الولد ..

فى اليوم التالى ، وبعد أن اطلع بلال شقيقه على الموقف وما جرى أبدى المعلم دهشته ، وقال إنه أمسك نفسه مراراً عن السخرية من الدكتور ، ولكن هذا لم يمنع إبداء احترامه له وأحياناً كان يتقدمه حتى يستقر فى مكانه ، ولو أن شخصاً آخر يشغل مكانه طلب منه برقة أن يخليه للأستاذ الدكتور .. ومع هذا لم يراع صلة ولا عشرة وسمح لنفسه أن يقف فى المقهى وأن يطلب بصوت

مرتفع طرد أحد العمال ، هذا ما لا يقبله المعلم أبداً .

نعم .. الزبون على العين والرأس ، لكن لكل حدوده ، ولكل أصول يجب الالتزام بها .

" فى ستين داهية .."

شوهد الدكتور يمر متمهلاً على الرصيف المقابل فى الأيام التالية ، يختلس النظر من بعيد حتى إذا لمح النادل أسرع الخطى ، وبعد أيام جاءت الأخبار أنه أصبح يتردد على المقهى المقابل ، ولم يعبأ أحد ، أما المعلم فقال :

" سيعتاد المعسل هناك .."

المقهى الآخر مستواه أقل ، أكثر ازدحاماً ، يؤمه سائقو عربات الأجرة ، خاصة الميكروباسات ، وآخرين عابرين لوقوعه على الطريق العام وقرب موقف المواصلات ، يطلق عليه اسم مقهي الزبون التقالى ، كما أنه لا يقدم التنباك ، يقدم المعسل ، وطوال اليوم يتصايح رواده وهم يلعبون النرد والدومينو والطاولة وهذه الألعاب غير مسموح بها هنا ، حرصاً على الهدوء، وعلى الخصوصية التى ورثها المعلم عن والده .

الغريب أن بعض الزبائن بدأوا يتحدثون عن الدكتور فى غيابه أكثر مما كانوا يتحدثون عنه فى حضوره ، أو فى أيام تردده ..

أكد المهندس فتحى مدير المطبعة المجاورة أنه دكتور مزيف ، وأنه لا يحمل أى درجة علمية رفيعة ، بل ربما لا يحمل أى درجة على الإطلاق ، وأنه لم يوضح فى أى جامعة يعمل بها ، وأى علم تخصص فيه ؛ وقال إنه سمح لنفسه أن يقلب بسرعة المجلد الذى يحمله باستمرار أثناء دخوله دورة المياه ، فوجده يضم أعداد مجلة صحية كانت تصدر فى العشرينيات ، ويمكن رؤية مثلها على سور الأزبكية أو على عربات اليد التى تبيع المخلفات فى الشوارع الخلفية.

المهندس عز صاحب متجر قطع السيارات ضحك عندما أصغى إلى هذه التفاصيل، قال إنه يذكر يوماً ناداه قائلاً "يابك.."، التفت إليه متمهلاً، قال :

" لاتنسى اللقب العلمي من فضلك .."

انتابته حالة من السخرية حتى فكر أن يلفظ كلمة بذيئة جداً لا تتفق مع وقاره البادي وهيئته ، لكنه تماسك مؤثراً الصمت .

لمدة سنة لم يظهر فيها الدكتور ، ولكن سيرته لم تنقطع ، كان البعض يستعيد حضوره ساخراً ، ولكن عبد الواحد المصور السينمائي قال أنه دكتور حقيقي ، وأن اسمه مطروح الآن ليتولى إحدى الوزارات ، علق المعلم قائلاً :

"كل شيء يمكن أن يحدث هنا ..

ثم أشار إلى المقاعد

"كم من أشخاص عرفناهم .. قعدوا هنا ثم قاموا إلى كراسي الحكم .. ولم نرهم بعد ذلك .."

ولكن خلال حوار جرى بين المعلم وعطا بك الصحفي بمؤسسة أخبار اليوم قال أن الدكتور كان يضفي على المقهى شيئاً خاصاً ، وأنه لم يأخذه مأخذ الجد قط ، وأنه يتفق مع المهندس فتحي في أنه لم يكن يحمل أي شهادة علمية ، وأنه دكتور مزيف ، قال عطا بك أنه يحمل شهادة علمية بالفعل ، يبدو أنه حصل عليها من إحدى الدول الأوربية ، في بلاد معينة توجد نوعيات مختلفة من الشهادات العلمية ، أعلاها طبعاً دكتوراه الدولة . ولكن هناك درجات أخرى أقل بكثير يمكن لحاملها أن يطلق على نفسه لقب دكتور ، ولكن بإجراء المعادلات الصحيحة القانونية لا تتجاوز شهادة الليسانس ، ومن الثابت أنه أمضى في فرنسا مدة .

أبدى المعلم دهشة لأن الدكتور لم ينطق حرفاً ، لا فرنسياً ولا انجليزياً

عندما جاء بعض الأجانب يوماً وطلب منه المساعدة في الترجمة لم ينطق بحجة أنه لا يتحدث إلى الغرباء ، ثم هز يده مشيراً إليهم ..

"هل تظن أنهم سياح .. كلهم جواسيس .."

كانت الأخبار تصل أحياناً بانتقاله من مقهى إلى آخر في وسط المدينة ، وقيل مرة أنه طرد مضروباً من مقهى يقع في ممر خلفي بين عمارتين ضخمتين قرب ميدان التحرير ، وأن أحدهم طارده في الطريق حتى لحق به أمام دكان عصير الخروب وصفعه على قفاه .

كلام كثير دار ولف ، لكن الغريب أن سيرته لم تنقطع ، وأحياناً كان يصبح موضوعاً للنقاش ، واستمر الأمر كذلك حتى ظهوره ، بعد سفر النادل الذي كان سبباً لانقطاعه إلى العراق ليعمل في مقهى هناك ، بعد رحيله بيومين ، بالضبط يومان ظهر الدكتور عند مدخل المقهى ، بالضبط في موعده القديم ، ما قبل الغروب ، كان يتأبط المجلد الأسود الضخم كعادته ، غير أن تبدلاً طرأ عليه .

إذ بدا أكبر سناً ، أشد إرهاقاً ، وكأنه لم ينعس منذ يومين أما حلته التي كانت دائماً نظيفة ، متسقة مع القميص ورباط العنق ، فقد بدت وكأنه لم يبدلها منذ فترة ، على القماش بقع غامقة بادية ، وعندما جلس بدا مكان زرار خالياً .

جاء المعلم متمهلاً ، صافحه ، بسط يده داعياً إياه للجلوس ، قال :

"نورت مطرحك .."

ثم اتجه إلى النصبة ليجهز بنفسه النرجيلة وهذه علامة كرم واهتمام لا يجهلها من له صلة بالمهنة ، وقف الدكتور ليشكر المعلم على اهتمامه ، وعندما عاد إلى الجلوس بدا منزوياً ، خائفاً من شيء ما لا يمكن تحديده ، وخلال الأيام التالية بدا وكأنه لا يصغي إلى ما تغامز به البعض ، غير أن

ظهور المهندس فتحي كان يصيبه بارتباك ، حتى لتبدو عيناه أضيق ، وتصبح شفتاه مزمومتين ، كان إذا بدأ حديث عنه في أقصى المقهى ولو بصوت خافت لا يسمعه ينكمش داخله ، مسدداً النظر إلى المجلد الذى لم يعد يفارقه حتى عند اضطراره إلى دخول دورة المياه ، بل إن البعض كان يحلو له أن يعابثه ، فيصيح بصوت مرتفع عند دخوله ..

"أهلاً بالدكتور .."

وبرغم نبرة السخرية البادية فإنه يلتفت متئداً ، منحنياً بدقة محسوبة ، ولو أن هذا جرى في الماضي لنشبت أزمة حادة ، كانت الرغبة في الدعابة تشتد ، خاصة عند المهندس فتحي وحسنى الجزار ، ولكن المعلم رجاهما في صمت ألا يبالغا ، فإحساس غامض بالشفقة ينتابه تجاهه ، والرجل يبدو في حاله ، ملموماً ، منطوياً ، وكأنه لم يعد له مقر إلا هذا المقهى ، بل إنه كان يلحظه من مكانه ، يشارك بصمْت في بعض المناقشات التى تدور بين الجماعات الجالسة هنا أو هناك ، لكنه لم ينطق قط .

أدرك المعلم ما يمكن أن يحرك سروره ، فكان يسأله دائماً عن موعد مناقشة الرسالة ، فيرد بحماس ، ويتحدث عن ضرورة الإخلاص وإظهار الضمير العلمى السليم في وقت فسدت فيه الضمائر .

كان المعلم حريصاً على ألا يصل حد السخرية إلى ما يمكن أن يثير حفيظته، أو يدفعه إلى أداء الغضب ، لهذا عندما مر أسبوع كامل على اختفائه وعدم ظهوره في موعده ، سأل شقيقه بلال ، والعمال ، عما إذا كان أحدهم أذاه أو ضايقه ، لكنهم أكدوا جميعاً أنهم حرصوا على شعوره ، تماماً كحرص المعلم ، وأنه في آخر مرة بدا هادئاً ، بل إنه صافحهم جميعاً ، هذا ما لم يفعله قط من قبل ، وأثناء خروجه حاملاً المجلد الضخم استدار برأسه ، متوقفاً لحيظات قصار ، ثم مضى ..

ما بين نتوء الجدار البارز وسط الممر والناصية المؤدية إلى مجموعة الدكاكين المتجاورة وضع الفاترينة الخشبية ذات الواجهة الزجاجية النظيفة .

موضع منزو ، لكنه واضح ، كل داخل إلى المقهى لا بد وأن يمر به كذلك إلى السوق ، عادة لا يسمح أصحاب المتاجر بوقوف أي بائعين ، المكان ضيق، وحواري الخان وممراته لا تتسع أحياناً لاثنين متجاورين ، ولكن منذ زمن بعيد وهذه المساحة الضئيلة التى لا تقع فى مواجهة أحد معتبرة كمشاع للرزق ، لكن هذا لا يعنى مجيء أي غريب ، غير معروف واستقراره بها ، لا بد أن يتفق أصحاب الدكاكين المجاورة بشكل ما على شخصه وحضوره .

لسنوات طويلة ظل عم إبراهيم بائع الكتب يتخذها مقراً له ، كان يضع منضدة قديمة فوقها صفوف من مجلدات عتيقة ، لكن دائماً كان يمكن رؤية تقويم النيل لأمين سامى بينها ، وقيل أنه الوحيد القادر على توفير نسخة منه فى أي وقت ، مع أنه عد من الكتب النادرة ، كان يفارق مقعده عصراً ، متأبطاً عدداً من المجلدات ، ويمضى متمايلاً بجسده القصير ، ورأسه الضخم المرفوع دائماً فى نفس الوضع الذى يتخذه من فقدوا بصرهم ، ما زال قدامى السوق يذكرون ابتسامته الساخرة ، وقدرته علي رواية النكات ، ولسانه الطويل ، وغرامه بالنساء ، كان يترك كتبه فوق المنضدة حتى بعد أن يغلق السوق أبوابه ، وتصبح ممراته ونواصيه خاوية ، خالية ، تخلو تقريباً من المارة، تظل الكتب كما هى ، لا يقربها أحد ، كان القوم يتباركون بعم ابراهيم ، ويدعونه للدخول والجلوس قربهم ، أما إذا تناول مشروباً أو أكل لقمة فتلك منزلة لا ينالها أحد بسهولة .

بعد وفاته ظلت المنضدة خالية تماماً ، ثم جاء القوم ذات صباح فلم يجدوها ، استمر الركن الصغير شاغراً ، وحاول جمعة القهوجى أن ينزل من ربع

السلحدار حيث ينصب عدته إلى السوق ، ويقف مكان عم إبراهيم ، ولكن الحاج سعد تاجر الفضة اعترض ولم يوافق على المسعى الذى قام به المعلم فرج القربى ، قال إن وجهه يقطع الخميرة من البيت ، فهو عابس طوال اليوم ، ولا يتكلم مع أحد ، ثم إنه ليس من المعقول أن يحل مثله مكان المرحوم ابراهيم الذى كان الجميع يتفاءلون بمجرد ظهوره ..

استمر المكان الصغير ، الذى لا يلحظ ، ولا يدرك قيمته إلا أبناء السوق، وأهالى الحى ، شاغراً لمدة أربع سنوات وبضعة شهور إلى أن نشط الحاج سعد نفسه وبدأ يكلم جيرانه عن شاب عرفوه جميعاً طفلاً صغيراً ، عندما كان يقف إلى جوار والده عباس المجنون أثناء طهيه العدس قرب وكالة الفراخ ، كان ماهراً فى إعداده ، وكان أغنياء الخان وأكبر تجاره يسعدون بتناول طبق من عنده خاصة فى الشتاء ، إلى أن طفش عباس وهج فى بلاد الله أثناء نوبة هياج كانت تنتابه فجأة ويشهر خلالها سيفاً قديماً يهدد به رقاب الخلق .

من نزل إلى سوق العمل وتقلب فى مهن شتى لينفق على أمه وأشقائه الثلاثة ؟

إنه ذلك الصبى الصغير الذى كان يخرج من المدرسة ليجىء إلى الخان ويقف إلى جوار والده ، يغسل الأطباق أو يحملها إلى الزبائن هنا وهناك ، ثم تقلب فى أنشطة شتى ، وبعد أن شب وعرف الرجولة المبكرة ، وبعد أن تمكن من فتح بيوت أشقائه الثلاثة ، اثنتان منهم قام بتزويجهما ، وتجهيز أثاثهما ، وكافة ما يحتاجان إليه ، بعد تخرج شقيقه الأصغر من المعهد الفنى ، بعد أن اطمئن عليهم جميعاً ألحت عليه أمه أن يشوف ابنة حلال وأن يكمل نصف دينه، لكنه فضل أن يستأنف دراسته على كبر ، التحق بمدرسة ليلية وأتم دراسته الثانوية ، حصل على مجموع باسم الله ما شاء الله أدخله كلية الآداب، ومنذ ثلاث سنوات يحمل الليسانس ..

بالضبط .. عبد المنعم بن عباس بائع العدس ، هذا الصبى الصغير يقترب من الثلاثين الآن ، لكن أحواله أصعب ، الليسانس الذى حصل عليه لا يساعده على إيجاد عمل مناسب ، الشاب ظروفه صعبة والحمل عليه شديد ، ثقيل ، اقترح عليه أن يبدأ مشروعاً صغيراً يمكنه من تمشية الأمور .

قال الحاج سعد إنه فكر فى مكان عم إبراهيم ، لكن لا يمكن أن يتم هذا قبل موافقة جيرانه ، خاصة أولئك الذين تطل متاجرهم على الزاوية الصغيرة .

أسبوعان مرا ، وعندما جاء العمال فى الصباح الباكر ليفتحوا المتاجر ، وأثناء مرور الصبية الذين يتدربون فى ورش الصدف والجلد والفضة والنحاس، وأثناء دخول بعض زبائن المقهى مبكرين ، رأوا الفترينة الخشبية التى صممها عبد المنعم بنفسه ، ونفذها نجار من معارف الحاج سعد يسكن الباطنية ، يعمل موظفاً فى إدارة السجل المدنى صباحاً ونجاراً فوق سطح بيته بعد الظهر ، وله شهرة فى الحى ، بدت الفترينة نظيفة ، مجلوة ، زجاج الواجهة يلمع ، الجزء العلوى رصت فوقه علب لحم محفوظ ، وتونة ، وصلصة ، أما عند المنتصف بمحاذاة صدره ، فينبسط لوح من الرخام المصقول ، على حوافه قرص من الجبن الرومى ، وعلبة من الجبن الأبيض الدمياطى الذى شح وجوده من الأسواق خلال السنوات الأخيرة ، وعلبة مربى نارنج ، وأخرى فراولة وثالثة تين ، وأربع أوعية زجاجية كبيرة ، بداخل أولها ليمون مخلل ، وثانيها خيار وفلفل ، وثالثها باذنجان اسود ، ورابعها حوى لفت أبيض ، وقد اشتهر أمر الليمون والباذنجان فى السوق حتى أن بعض الزبائن كانوا يطلبون قطعاً بمفردها ، والحقيقة أن أمه كانت هى التى تعد المخلل ، وتبذل فيه من العناية والدقة ما تبذله فى الطعام الذى تقدمه لضيوفها الأقربين .

أما الجزء الأسفل المغطى فخصصه لحفظ الخبز الأفرنجى والبلدى ، وكميات الجبن وعلب المربى الأخرى والتونة ، وما بين المغطى واللوح الرخامى درج

صغير كان يضع فيه النقود .

لاقى حضوره قبولاً وترحيباً . بل أبدى أصحاب المتاجر والعاملون فيها تعاطفاً ، كانوا إذ يمرون به يومئون إليه ..

"الله يعينك .."

أو

"الله يرحم والدك .."

وكان عم مصطفى ماسح الأحذية بمقهى الفيشاوى القريب يقف عند المرور به ويرفع يديه طالباً منه قراءة الفاتحة على روح والده عم عباس الأمين ابن الأمناء ، ثم يذكّر الواقفين بالرجل الفقير بائع العدس الذى عثر يوماً على حقيبة صغيرة فيها مائة ألف جنيه انجليزى ، سلمها إلى الشرطة ، وعندما جاء صاحبها الخواجة دعيج الأرمنى راح يبكى ويقبله ، وعندما عرض عليه حقه ، النسبة القانونية رفض عم عباس المجنون ، أبى ، قال إن قرشاً واحداً لن يدخل جيبه ولن ينفق على أبنائه الأربعة إلا من عرقه وكده ، نشرت الصحف اسمه وصورته ..

"الله يرد غيبته .. الله يبارك لك .."

كان عبد المنعم هادئاً ، حيياً ، لا يسمع له صوت ، وبين ملامحه يطل حزن خفى ، يلتقى مع انكسارة فى زوايا عينيه ، ربما نتاج تعب السنين ، وتوالى ليالٍ شظفة ، صعبة ، لا يعرفها إلا هو ، كان أهم ما يميزه النظافة ، وما يطلقون عليه "النفس الحلو" ، صحيح أنه لا يقوم بطهى طعام ، أو شى لحم ، لكن سندويتشاته كانت شهية ، وخاصة عند اقتران الجبن الأبيض بالمخلل البيتى الجيد الذى كثر الطلب عليه ، حتى أن الحاج سعد نصحه بالاستعداد لشهر رمضان المقبل بإذن الله ، أن ينصب فى ميدان الحسين منضدة يبيع

فوقها المخلل ، كان الزبائن يقولون أن سندويتشاته فيها بركة ، هذا ما شاع عنه ، حتى إن البعض اكتفى بها فى الغذاء ، واستعاض بها عن كباب الدهان، أما المطعم السياحى فى قلب الخان فلا يتعامل معه إلا الأجانب ، والمجموعات السياحية .

كان الحاج سعد يقول إن شطيرة عبد المنعم أبرك من وجبة كاملة فى هذا المطعم المكيف ، الذى يقدم قطعة لحم رقيقة لا تمسح الزور ومع ذلك تؤكل بالشوكة والسكين ، ويتناول بعضهم الفوطة لتجفيف الفم بعد كل قضمة وكأنه يأكل فعلاً .. ثم يدفع مبلغاً لا يستهان به من النقود ..

فى اليوم الرابع اقترب رجل يرتدى حلة صفراء من عبد المنعم ، رفع يده بالتحية ، ثم سأله عما إذا كان قد استخرج رخصة أم لا ؟ ، قال إنه ممثل الصحة .

تطلع إليه لحيظات ، رأى لهجة تقع ما بين التهديد والطلب ، الزجر والاستجداء لا ينقصه الذكاء ، فتح الدرج ، تناول جنيهاً ، دسه فى يد الرجل الذى ابتسم قائلاً إنه سمع عن المخلل الطعم والسندويتشات اللذيذة ..

"ذوقنا .."

لف اثنين ، الأول جبن رومى ، والثانى مرية بالقشدة ، أومأ شاكراً انصرف مردداً :

"يدوم .. لكن لاتنسى الرخصة .."

قال الحاج سعد إن الرخصة ممكنة وإنه يعرف موظفاً فى مكتب صحة الجمالية يمكنه تسهيل الأمر ، ولكن عليه أن يرضى مثل هذا الرجل وأمثاله حتى بعد حصوله على الرخصة ، لأنه من الممكن إلحاق الأذى به فى أى وقت ، وإن كان هذا غير متوقع لأن مفتشى الصحة يفضلون تذوق المطاعم الكبيرة ،

أمامهم الدهان ، والعجاتي والسياحي ، إنهم يأكلون بدون مقابل ، بل إن بعضهم يصحب أقاربه أو أصدقائه ، طبعاً .. هناك من يخشى الله بينهم لكن مثل هؤلاء يقلون مع الزمن .

في اليوم التالي وقف أمام الفاترينة رجل قصير ، بدين ، يتنفس لاهثاً ، قال إنه ممثل البلدية ، بدا ممتعضاً بعد أن ظل ممسكاً الجنيه وقال مشيراً بحاجبيه إلى الجبن والمربى والبيض المسلوق ..

"اعتدت الإفطار قبل شرب الشاي .."

بعد أن لف واحد جبن أبيض بالباذنجان المخلل ، وآخر بالمربى والقشدة ، أشار بعينيه أيضاً إلى البيض قائلاً إن الساندويتشات صغيرة ، وطلب منه أن يتوصى ..

انصرف حاملاً خمسة ، بدا عبد المنعم مهموماً ، خاصة إن الحاج سعد تأخر في هذا اليوم ، إنه لا يدري من سيجيء بعدهما ؟

ثم انهمك في تلبية الطلبات ، كان يعمل بخفة ونشاط ، وفي اليوم السابع نفذ قرص الجبن الرومي في العاشرة صباحاً ، أي بعد ثلاث ساعات فقط من بدء عمله ، مما اضطره إلى أن يطلب من أشرف صبي الحاج سعد أن يأخذ باله من الشغل حتى يخطف رجله إلى بقالة أرتين في الموسكي . عاد بقرصين كاملين . في اليوم نفسه ، في المساء وقبل تناوله العشاء طلب من والدته أن تدعو له ، أن تبذل جهداً فوق الجهد ، أن تضاعف كمية الباذنجان الأسود والبصل والزيتون ، قال إن الناس تقبل عليه لجودة المخلل وطعامته !

بدت مسرورة ، نشطة ، فرحة وهي تعد له العشاء ، قال إن صافي ما يكسبه الآن عشر جنيهات يومياً بعد نصيب البلدية والصحة الذي يبلغ الآن حوالي جنيهين نقداً وجنيهين قيمة الساندويتشات .

دعت له بالنجاح وأن يبعد عنه أولاد الحرام .

فى اليوم التالى استفسر من موظف الصحة عن الموعد المناسب لقدومه إلى المديرية لبدء إجراءات الحصول على ترخيص ، لكن الرجل أومأ برأسه مهوناً ، مقللاً من خطورة استمراره بدون تصريح ، ثم أشار إلى نفسه قائلاً : لماذا تتعجل وأنا معك كل يوم .. خد بالك من السوق أولاً .

أومأ مجيباً فى صمت ، طبعاً .. من مصلحته ألا يتقدم للحصول على التصريح ، وربما يختلق العراقيل لتعطيله ، كان يقدم إليه الجنيه والسندويشات مرغماً ، وإن قل ضيقه مع توالى الأيام ، وتكرار مرور الرجل ، وتوقفه الصامت ، ونظراته النهمة إلى قطع المخلل ..

لكن .. ليت الأمر توقف عند موظفى الصحة والبلدية . إذ حدث فى بداية الأسبوع الثالث أن وقف جندى شرطة ، ملامحه ولهجته ريفية ، أحد هؤلاء المجندين القادمين إلى المدينة ، يكلفون بحراسة شوارعها ومنشآتها وهم يبدون حذراً ، وخشية من كل ما يحيطهم .

"سندويتش جبن .. وسندويتش كبدة .."

قال إنه لا توجد عنده كبدة ، فضل أن يبدأ بالأصناف التى لا يحتاج إعدادها إلى طهى ، أو خطوات إعداد معقدة ، بل إنه حتى الآن لم يحضر موقداً ولو صغيراً ، إذا احتاج إلى كوب من الشاى فإنه يطلبه من المقهى القريب ، تابع الجندى يديه ، تعملان الآن بسرعة ملفتة للنظر . يصحبها دقة فى اختيار المقادير ،

"الساندويتشات لحضرة الضابط .."

يعنى ذلك تحذيراً أو تنبيهاً لم يغب ولم يخف عنه . توقف لحيظات . تطلع إلى الجندى ذى الملامح الريفية . خمن .. انه من الصعيد ،

"من أى بلد .."

"من طما .."

"أجدع ناس .."

"تعيش .."

بدا راضياً ، خجلاً إلى حد ما ، لف سندويتشات الضابط فى ورقتين بدلاً من ورقة واحدة ، ورق أبيض ، نظيف ، اشتراه من متجر فى الموسكى ، أبى أن يلف الطعام فى أوراق الصحف القديمة كما يفعل معظم باعة الطعام القريبون منه ، صحيح إن ذلك مكلف قليلاً . لكن إقبال الناس عليه لم يأت من فراغ ، قال الحاج سعد إنه يتذكر الباعة القدامى عندما يراه يعمل .- أمثال أبو حجر بائع الفول الذى لم يذق مثيلاً له حتى الآن ، كان يملأ الطبق بعناية ، ثم يصب الزيت على مهل ، وينثر حبات البقدونس والثوم المفروم وكأنه يجهز باقة ورد وليس طبقاً من الفول المدمس بالزيت الحار . كانت أياماً جميلة ، خيرها كثير ، وناسها أقل . الزحام أفسد كل شيء .. كل شيء . هكذا يبدو غاضباً، ساخطاً ، يسكت فجأة ، مسهماً ، لا يجرؤ أحد من موظفى متجره على الاقتراب منه وإزعاجه حتى لو جاءت ملكة بريطانيا شخصياً ، بينما يستمر فى استحلابه فص الأفيون على مهل ، لم يفرح إنسان لنجاحه مثل أمه والحاج سعد ، أمه تدعو له وتساعده بعمل المخلل والحاج يراعيه ويشجعه وأحياناً يستدعيه ليشرح له بعضاً من أسرار السوق ، وطباع المتعاملين معه ، لكن يبدو أن الوضع الذى يواجهه لم يعرفه الحاج من قبل ، ولم يسمع به أحد.

فى اليوم التالى ، فى نفس الموعد تقريباً ، جاء الجندى الصعيدى اللهجة ، قبل أن يحدد الأصناف التى يريدها ، قبل أن يلقى التحية مد يده بورقة مالية فئة الخمسين قرشاً .. قال ..

"حضرة الضابط يقول لك إنه عاوز عشرة .."

الحق أنه بوغت ، عشرة سندويتشات بخمسين قرشاً فقط ؟ عندما كرر الجندى طلبه مرة أخرى لم يتبق عنده شك ، أما الجندى فرفع جهازاً لاسلكياً

صغيراً ، يبدو إنه أراد تأكيد الأمر درءاً لأى شبهة حوله ، بالأمس كان سعيداً جداً بالسندويتش الذى قدمه إليه مجاناً ، عاد بخطى بطيئة حتى يتمكن من التهامه قبل وصوله الموقع القريب فى قلب الميدان ، بل إنه مسح شفتيه بظهر يده حتى لا يتبقى أى أثر ، يبدو عليه إنه مدرك للثمن البخس المعروض ، لا يفى حتى بقيمة الخبز الحاف ولكنه تلقى أمراً . وما عليه إلا التنفيذ ..

"أزرق ينادى أحمر .. أزرق ينادى أحمر .."

تكتكات خفيفة . ثم يجىء الصوت محشوراً بالموجات والأسلاك والمعدن "أحمر يسمعك .."

يقف الجندى متصلباً . كأنه يواجه الضابط أمامه ولا يخاطبه عبر الهواء ، "سيادتك يا افندم نسيت تقول التشكيلة ..حول"

"اسمع يا عسكرى .. خمسة جبن رومى ، ثلاثة حلاوة طحينية ، واثنين مربى بالقشدة ..حول "

"تمام يا افندم .. وأنا سلمت المذكور الخمسين قرش .."

"لا تتأخر .. تعال بسرعة .."

ضرب الحاج سعد كفاً بكف . تطلع عبر عينيه الهادئتين ، الغائمتين ، حقاً.. إنه لم يسمع بشىء كهذا من قبل . ومع ذلك فإن التصرف سليم . يمكن لهذا الضابط أن يهد كل شىء فى غمضة عين . إنه ليس موظفاً فى الصحة أو البلدية ، إنه ضابط شرطة ، ومثله ، أيديهم مطلوقة فى البلد .. لكن كيف يقبل على نفسه أن يأكل طعاماً من شخص غلبان . لا يمتلك مطعماً ولا فندقاً.

فوجئ بالجندى يؤدى التحية ، هذه المرة خاطبه الضابط عبر الجهاز .. جاء صوته آمراً ناهياً .

"أحمر يتكلم .. أحمر يتكلم .."

"تمام يا أفندم .."

"لا تنسى المخلل .. خليه يحط شوية باذنجان .."

قال الحاج فتحي متأسفاً إنه أمر زائد عن الحد ولكن لا يمكن التدخل فيه ، قال الحاج القربى إنه يمر يومياً على هذه النقطة المقامة وسط الميدان . يعرف ضابطها الشاب ، يرتدى حلة سوداء ، ويبدو فرحاً ، مختالاً بالنجمة الموضوعة فوق كتفه ، يحملق بتحد فى خلق الله ، وأحياناً يتحدث بصوت مرتفع مع بعض زملائه الذينس يقفون معه خاصة قرب الغروب .

"ماذا أفعل .. لو استمر الحال على ذلك أسبوع آخر سيخرب بيتى .."

يومياً ، وفى ساعة تكاد تكون ثابتة ، اعتاد كل من جاء إلى السوق فى الصباح الباكر أن يرى جندى الشرطة يشق الممر المؤدى إلى مقهى الفيشاوى ، قاصداً الزاوية الصغيرة ، فى هدوء أول النهار كان أى إنسان يقف قريباً أو بعيداً حتى الناصية المؤدية إلى وكالة الفراخ وربع السلحدار يمكنه أن يسمع الحوار بين الأحمر والأزرق عبر الجهاز اليدوى الصغير الذى يطل منه هوائى قصير ،

"قل له أن يكثر من الباذنجان .. حول"

"تمام يا افندم .."

لم يزد المبلغ الذى يرسله مع الجندى عن خمسين قرشاً ، فى اليوم الرابع ، لم يحدد الجندى المطلوب بالضبط ، قال باختصار ..

"الباشا عنده ضيوف .."

تطلع إليه ..

"كم عددهم ؟"

راح الجندى يعد على أصابعه ، ثم عاود العد ..

"سبعة .."

"آه .."

اقترب الجندى منه ، ربما عندما لاحظ توقفه المفاجئ ، واستناده إلى النصبة براحيته ..

"لا تؤاخذنى .. أنا عبد المأمور ..

هز رأسه ، قال الجندى بلهجة أرق ..

"الأوامر أوامر .."

"هل يمكنك انتظارى .. إننى أحتاج إلى جبن رومى .."

"والنبى لا تتأخر .."

استدار حول الفاترينة ، ألقى نظرة على علب المربى ، وأوعية المخلل الذى اكتسب شهرة فى الخان كله ، على قرص الجبن المستدير ، يبدو الجندى مثقلاً بهموم ، يتطلع إليه بملامح متعبة ، الحاج سعد لم يأت بعد ، ما زال السوق فى بداية اليوم ..

على مهل يتجه إلى الممر المؤدى إلى السكة الجديدة ..

١٩٩٢/١٠/١٩.

المعادى

اجتاز المدخل الفسيح ، توقف ، لا يدري الخطوة التالية ، إلى من يتجه بالضبط ؟ مكتب الاستقبال مستطيل . خلفه وقف رجلان يتحدثان ، أحدهما طويل والآخر قصير يرتدي معطفاً من القماش الأبيض الخفيف .

ضوء ناعم ، خفي المصدر ، لانعكاسه على الجدران المغطاة بمادة صناعية ملساء مردود ما ، يحمل حقيبة جلدية ، خمرة لونها غامقة ، تضم جلباباً وملابس داخلية ومذياعاً صغيراً وأدوات حلاقة وفرشاة أسنان ومعجوناً ، وثلاثة كتب قدر أنها تكفي المدة ، يمسك بيده الأخرى عصاً نحيلة لا يحتاج إليها الآن.

لم يطل وقوفه ، اتجه مباشرة إلى الواقفين ، سأل القصير بعد إيماءة تحية .

– المفروض أن أدخل اليوم ..

عيناه اعتادتا النظر إلى القادمين في مثل هذه اللحظات ، أشار إلى الممر الذي يبدأ الجهة اليمنى .

– الغرفة الثانية للتسجيل ..

غرفة مستطيلة . يتصدرها مكتب معدني ، بجوار النافذة صوان مستطيل، أدراجه نحيله، ألصقت عليها بطاقات بيضاء صغيرة، عليها حروف إنجليزية وأرقام ، أصوات متداخلة في المكان نائية ، لا تبدد الصمت تماماً .

يدخل شاب يرتدي القميص البني الفاتح ، والبنطلون الغامق ، يبدو أنه لباس موحد للعاملين ، لكنه لا يلبس معطفاً أبيض ، يمسك بيده جهاز اتصال صغير ، لم يدرِ مبرره . أو بمن يتصل ؟ ، لكنه سمع منه أصواتاً خافته ، متداخلة ، هل له ضرورة ؟ أم تعمد إظهاره لإبهار القادمين الجدد ؟

يبدو باسماً ، مرحباً ، أشار إلى المقعد ، حقاً .. إنه في حاجة إلى الجلوس، إذ بدأ ذلك الصليل في جدار بطنه ، والوخز ، يخرج مظروفاً يحتوي على

ورقتين حرص على تصويرهما . والاحتفاظ بنسختين منهما ، خطاب المؤسسة الموجه إلى الإدارة هنا ، وفيه استعداد لدفع النفقات طبقاً للاتفاق المبرم ، المعمول به ، الأخرى تقرير الطبيب المعالج ، ويحدد التوقيت بدقة .

غداً .. العاشرة والنصف صباحاً .

هنا ، في مكان ما ، في موضع يجهله حتى الآن ، سيتمدد ، مُغَيَّب الوعي، ثمة مشارط وآلات جراحة مرصوصة الآن في صوان ما ، أو ربما تستخدم في عملية الآن ، إحداها سيغوص في جسده .

يحاول أن يطرد عن ذهنه استفساراً داخلياً يتردد من حين إلى حين هل سيقدر له الخروج مرة أخرى من المبنى ساعياً على قدميه ؟ غير أنها .. العملية ليست خطيرة إلى هذا الحد ، لكنها رهبة المرة الأولى بالنسبة له .

أغمض عينيه لحيظة بتأثير هبة هواء مختلف عن الهواء الصادر عن أجهزة التكييف ، أو هكذا خُيل إليه ، هبوب أثار عنده ذكرى غامضة ، شاطئ النهر، منطقة ريفية ، عميقة الخصوبة ، وقارب يتأهب للعبور .

أين ؟ متى ؟

لا يدري .. لا يمكنه التحديد .

الموظف يفتح درجاً ، يتناول ملفاً أصفر اللون ، مقسماً إلى خانات صغيرة، ثبت الخطاب والتقرير داخله . تناول ورقة مطبوع عليها سطور وكلمات ما ، يسأله .

يذكر الاسم ثلاثياً .

يحدد العنوان بدقة ، رقم المنزل ، الشقة . اسم الشارع والضاحية .

تاريخ الميلاد ؟

يردد الأرقام التي كتبها مرات في استمارات عديدة لا حصر لها ، اليوم ، الشهر ، السنة .

المرة الأولى التي يجري فيها جراحة ؟

نعم

أثمة أسنان صناعية ؟

لا

إنه محايد تماماً ، أو هكذا يحاول أن يبدو ، كأنه يجيب على أسئلة موجهة إلى شخص آخر ، شخص يصحبه ، يؤنسه ، حتى لا يكون بمفرده . لكن .. أين رأى هذه الضفة ، متى كان هذا الصباح الندي ؟ المؤكد أنه كان يقف فوق مرسى خشبي .

هل قال أحدهم إنهم عثروا على تمساح يحاول الخروج إلى البر ؟

كيف أفلت من خزان أسوان ؟ من السد العالي ؟

قال أحد الواقفين - لا يذكر ملامحه أو هيئته .. يعي القول فقط - لا بد أنه انحدر من البحيرة صغيراً جداً ، وخلال قطعه مجرى النهر من الجنوب إلى الشمال نما وكبر ، اكتمل عند قربه من المصب .. إذن الضفة في الدلتا ، لكن.. لا يمكنه القطع !

هل يرغب في إيداع شيء بالأمانات ؟

يهز رأسه ، يقول إن حاجاته كلها في هذه الحقيبة .

يقول الموظف إنه يستفسر عن أشياء ثمينة ؟

لا يوجد .

يبدو معتاداً على توجيه تلك الأسئلة ، ينطق بعضها بدون التطلع إليه ، بدون تغيير نبرة صوته .

الآن بدأ يدرك الرائحة الخاصة للمكان ، ثمة مطهر ما .

يسأل عن اسم أقرب الناس الذي يمكن الاتصال به ؟

يتطلع إليه ، إيقاع السؤال ، هل يلمح فضولاً ما في نظراته ؟

يضيف قائلاً إنه من المستحسن ذكر رقم الهاتف إذا أمكن ، ولأن نظرته الثابتة طالت ، خيل للموظف أنه لم يسمع ما قاله ، كرر :

من الأقرب الذي يمكن الاتصال به ؟

يحيد بعينيه صوب الحقيبة المستقرة بحذاء قدميه ، لا يخفي عليه مغزى السؤال وهدفه ، عبثاً يحاول استعادة هذه الضفة النائية ، بقدر وضوح الجزء الذي كان يتطللع إليه ، تشققات الطمي ، الحشائش الغزيرة ، النابتة ، تلاطم الأمواج المؤدية ، بقدر ما كان المكان كله غائباً تماماً .

يستفسر الموظف مرة أخرى ، أقرب الأشخاص . اسمه ورقم هاتفه ... كان يمسك القلم مشهراً التأهب .

من ؟

يستمر في تطلعه إلى العصا ، إلى أرضية المكان ، إلى اللحظة ..

يونيو ١٩٩٠

ظهوره المباغت بعد طول غيبة ، توقفي أمام نحوله البادي أثناء عبوري ميدان الحسين ، ضغطه يديَّ بقوة ، تطلعه إليَّ .. تلك ملامحه التي ستتردد عليَّ فيما بعد ، سواء تذكرته عمداً أو عندما تباغتني قسماته من خلال تمعني وسرحاتي فيما جرى واندثر مع الوقت !

لم أعرف عنه الكثير ، رغم زمالتنا التي استمرت عاماً وبضعة شهور ، أما علاقته بعوض بك فما تزال لغزاً ، أدركها الكثيرون خلال انتخابات مجلس الأمة ، عندما رشح عوض بك للمرة الثانية والثالثة ، إنه أحد الضباط الأحرار ، عمل مديراً لمكتب أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ، اختلف الناس حول شخصه ، هل هو حسين الشافعي أو كمال الدين حسين ؟ وحاول البعض الاستدلال بمعرفة السلاح الذي انتمى عوض بك . إذا كان الفرسان فهو إذن وثيق الصلة بحسين الشافعي ، وإذا ثبت أنه المدفعية فيكون مقرباً من كمال الدين حسين وزير التعليم - وقتئذ - وبالتالي يصبح قضاء الحوائج من هذه الوزارة ميسوراً ..

لكن لم يعرف أحد ، وحرص عوض بك على إبقاء الأمر غامضاً ، حتى سأله البعض صراحة ، أجاب بابتسامة لا تشي ولا تشفي ،

حاولوا التحقق من خلال فوزي ، لكنه لم ينطق كلمة ، إنه أقرب الناس إلى البك ، دوره النشط في الانتخابات معروف ، صحيح أن المنافسة والمواجهة كانتا بمثابة مجازفة ، وجهداً لا ينتظر معه رجاء أو جدوى . إن لم يتضمن تحدياً للسلطات التي كانت عَفيَّةً - وقتئذ - ، ومع ذلك أقدم البعض!

بدأ فوزي الأنشط في الدعاية ، تواجد في أماكن شتى ، في أوقات مختلفة . تقدم سيادته خلال جولاته على المقاهي والوكالات والأسواق ، وعند زيارة العائلات الكبيرة ، القديمة في المنطقة ، كما قاد الهتافات ، وردد

الشعارات ، وطارد بنفسه قلة مارقة حاقدة حاولت تمزيق لافتات القماش المعلقة خارج باب الفتوح جهة الحسينية .

تولى مسئولية منطقة قايتباي والخفير وملاعب شيحة ، حيث سكان القبور، ومأوي الخارجين عن القانون أو تجار المخدرات ، بعد زيارة البك الوحيدة ، بدأ تردده ، وسهره حتى ساعة متأخرة ، وعودته مشياً على قدميه إلى بيته بميدان الجيش ، بل إنه دخن الحشيش وأثار إعجاب العتاة عندما استمر ثابتاً بعد صلاة العشاء إلى ما قبل آذان الفجر ، دخن مائة وعشرين حجراً مرصوصاً بالمعسل المحشو بأنقى أنواع الحشيش، لم تبدر منه سعلة ، ولم يمل رأسه لحظة ، ولم يزغ بصره بل إنه شد الأنفاس بمتانة حتى أشعل النيران في خمسة وثلاثين حجراً طرقعت كلها ، ولم تعد صالحة للإستخدام ، وأكد بعضهم أن العدد الحقيقي يفوق الخمسين ، أبدى قدرة عالية وثباتاً أدهش المخضرمين كما أبدى كرماً فائقاً ، كان بمجرد دخوله المجلس يدس أصابعه في جيبه ويخرج لفافه .. لا يقل وزنها عن أوقية كاملة ، ينزع غلاف السلوفان ، يضعها أمام الكافة ..

- تفضلوا ..

أوتي مقدرة على تكسير الفحم المتقد إلى قطع صغيرة في حجم حبات السمسم وتوزيعه بطريقة مدهشة . أصبح مقرباً من القوم ، يدير الحوار معهم ، ملماً بأمزجتهم ، مردداً مفردات كلامهم ، حاز ثقتهم لجدعنته وتواضعه ، ودوام إقامته بينهم ، لم يقم مأتم إلا وشارك في تقبل العزاء أو تقديمه ، ولم ينصب سرادق فرح إلا وظهر أكثر من مرة ، مشهراً أوراقاً مالية لا تقل عن الخمسة جنيهات ، مردداً عبارات التحية قبل أن يدسها في صدر الراقصة ، شارك أيضاً في مباريات الكرة الشراب .

لهذا كله صار مألوفاً القول إن عوض بك يضع هذه المنطقة في جيبه ، بل صارت من معاقله ، لم يجرؤ أي منافس على الاقتراب منها وانتزاع صوت

واحد منها إلا بعد غياب فوزي .

لم يكن وطيد الصلة بأهالي قايتباي فقط ، ولكنه وثيق العلاقة بشباب الدَّراسة . وكفر الزغاري، والعطوف، قدم إليهم خدمات جمة من خلال النادي الرياضي الذي افتتحه الرئيس جمال عبد الناصر شخصياً ، وألقى فيه خطاباً ، ورمحت أمامه الخيل ، وارتفعت البالونات في الهواء.

عمل مدرباً لرفع الأثقال في النادي قبل مجيئه إلى الجمعية التعاونية، لم يكن مضى عليَّ أكثر من ستة شهور إثر نقلي من المقر العام للمؤسسة بالدقي لأسباب يضيق المجال عن شرحها ، وإن كانت في مجملها سياسية !

يوم جمعة بالتحديد ، ظهر في الجمعية بصحبة المدير . قدمه قائلاً إنه زميل جديد ، من أبناء المنطقة ، يعرف الكثير عن الخان ، وسوف يتولى مسئولية توزيع الخامات .

أبديت ترحيباً متحفظاً ، كنت أعي موقوتية وضعي ، وأن عودتي إلى المقر العام قد تتقرر بين لحظة وأخرى بمجرد زوال الأسباب ، وبرغم قصر المدة التي أمضيتها إلا أنني اعتدت على المكان ، خاصة بقائي بمفردي ساعات طويلة .

كان مقر الجمعية في غرفة مستطيلة يؤدي إليها مدخل مربع رصت على جوانبه ألواح النحاس المستطيلة والمستديرة ، وأجولة الصدف وصناديق العنبرويت المستخدم في صناعة السبح ، والمكاحل والقلادات ولفائف الجلد ذات الرائحة النفاذة التي تلغي ماعداها ، أما سن الفيل وأوراق التذهيب والتفضيض وبعض المشغولات الثمينة فكانت مصانة في الدولاب القديم الذي يحتفظ المدير بمفاتيحه معه . كنت ممثل الإدارة العامة ، منتدباً لتنظيم الإجراءات ، مهمة غامضة حولها المدير إلى عمل رتيب . كان رجلاً قصير القامة ، كبير الرأس ، يمشي متَمايلاً ، نشيطاً . تخصص في صياغة الذهب وتطعيمه بالأحجار الكريمة ، كان يصيغ قطعاً نادرة تهدى إلى ضيوف البلاد الرسميين ، كثيراً ما اتصلت به رئاسة الجمهورية ، وسرعان ما ينقطع عن

الخلق، ولا يخرج من بيته إلا حاملاً التحفة المطلوبة ، ردد باستمرار مؤكداً مهارة زوجته وقدرة أناملها الفائقة على تطويع الذهب والماس والزمرد ، يقضي معظم وقته في السوق يحلم دائماً بالسفر إلى بلدان عديدة ، ويقول إن هدفه النهائي هو الاستقرار في نيويورك أو هونج كونج ، ويبدو أن عوض بك وعده بضمه إلى وفد من الحرفيين سوف يسافر إلى أحد المعارض الدولية مقابل تعيين فوزي في الجمعية .

كنت أجلس إلى المكتب الوحيد ، أمامي دفاتر الفواتير ، بجواري خزانة صغيرة قديمة عليها حروف بارزة بالإنجليزية ، يتردد عليّ الحرفيون وأصحاب ورش الجلد والنحاس والصدف والخشب المطعم لشراء الخامات بأسعار تعاونية، يقوم عم إسماعيل بوزن المبيعات وأقبض النقود ، أرتبها ، صباح كل يوم أسلمه إيراد الأمس ، يمضي به إلى البنك ، أراجع الأرصدة باستمرار ، المنصرف ، المتبقي . معظم وقتي أمضيه متطلعاً عبر قضبان النافذة المزخرفة . الشارع قريب ، ارتفاع طابق واحد يفصلني عنه ، المبنى قديم ، يمت إلى القرن الثامن عشر ، في البداية كان فندقاً ومعرضاً للتجار العجم القادمين من فارس وآسيا الوسطى .

في القرن التاسع عشر شب حريق هائل لا تزال بعض آثاره على الجدران القبلية ، أتى على البناية ، أعيد ترميمه ، ولأن المكان كله من وقف السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي ، تمكن أحد المسئولين بمشيخة الأزهر من استصدار مرسوم لتخصيص المكان كله للطلبة القادمين من الصعيد . ثم سمح لطلبة آخرين من أقاليم مختلفة . في تلك الغرف الفقيرة ، الضيقة ، الخالية من دورة المياه المستقلة ، يوجد في المبنى كله أربع دورات عامة ، مشتركة ، عاش مجاورون فقراء أصبحوا مشاهير فيما بعد . منهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعد زغلول وغيرهم .

معظم وقتي أمضيه بمفردي ، عندما يجلس عم إسماعيل القرفصاء في

الممر ويكف الصناع عن المجيء ، أتطلع إلى الطريق ، أصغي إلى الضجيج الصامت ، خفي المصدر للمكان المعبأ بالقِدَم .

بعد مجيء فوزي لم أعد وحيداً ، في البداية تأملته خلسة محاولاً تلمس ملامحه بالطبع .. هو أيضاً كان يحاول ، الغريب أن صورته التي بقيت تلك التي طالعتني في ميدان الحسين . كلما خطر لي أو عبر أفق ذاكرتي ، أو تساءلت عن مكانه الآن : حي أو ميت . الهيئة الأخيرة وليست الأولى كما اعتدت عند تذكر الآخرين . دائماً البدايات تَجُبُّ ما عداها ، ولكنني إذ أسترجع أيامي تلك متمهلاً أراه في أطواره المختلفة .

قامته الرياضية ، يفرد جسده عند وقوفه ، يبرز صدره إلى الأمام ، تتباعد ذراعاه عن بدنه مقداراً يسيراً ، عليه تأهب دائم واستعداد للقيام ، يميل إلى الأمام قليلاً ، يرتكز دائماً على أطراف أصابعه ، جمله التي ينطقها نهايات أحاديث ، ثم ينزل صمت على ملامحه . يومئ أثناء إصغائه باستمرار ، يبدي الموافقة بانتظام ، عند حد معين يبدو ذلك مبالغاً فيه لكنه يستمر محاولاً تضييق المسافة التي تفصله عن محدثه ، أحياناً يشبك أصابعه ، يدير إبهاميه حول بعضهما بسرعة أو يضرب الأرض بمقدمة حذائه .

بعد حوالي عشر دقائق من تسلمه العمل ، توقف في منتصف المدخل متأملاً أكوام الخامات ، متطلعاً إلى الأرفف التي تصل الأرض بالسقف ، التفت ناحيتي ، قال إن المكان يبدو مضطرباً ، إنه في حاجة إلى ترتيب . قلت إن معظم المواد التي تصل إلى الجمعية لا تمكث طويلاً ، بل إن بعضها مثل لفائف الورق المذهب ، أو الآلات الموسيقية الصغيرة توزع في نفس اليوم.

رفع إصبعه ، علامة ما بين الرغبة في الاستئذان ، وما بين النفي الهادئ ، الحازم . خطا إلى الداخل ، خلع سترته ، شمر قميصه كاشفاً مرفقيه ، عروق ساعديه بارزة ، قال فيما بعد إنه مارس حمل الأثقال زمناً ، وحصل على ميدالية فضية ، نفض غباراً غير مرئي عن ذراعيه ، تقدم إلى المدخل ، انحنى

على برميل «جملكة» ، أحاطه .

إنه ثقيل جداً . لم يتحرك ولم يقلقه أحد من موضعه حتى بدا ملتصقاً بالبلاط القديم ، تراكم الغبار عند حوافه التحتية وعشش عنكبوت . بدا جزءاً من الأرض . كان ممتلئاً إلى الحافة ، إذ تم تفريغ جوالين وردا صباح اليوم ، والجملكة بطيئة التصريف ، لا يشتري الصانع أكثر من كيلو عادة ، أما ورش النجارة الكبيرة فتحصل على ما تحتاج إليه بطرق شتى وتخزن احتياجاتها .

استمر فوزي منحنياً محتضناً البرميل كأنه يقيسه أو يتأكد من وزنه ، حرك مؤخرته يميناً ويساراً ليحكم تثبيت قدميه في الأرض ، أسند وجنته إلى الحافة العلوية ، أغمض عينيه ، بدا مستغرقاً ، غائباً ، غير مُتصل بكافة ما يحيطه ، هز البرميل قليلاً ، أصغيت إلى صوت واهن كالخشخشة البعيدة ، هزه مرة أخرى . زام فجأة ، اعتدل واقفاً والبرميل الصلد ، الهائل بين ذراعيه، مستقراً على صدره ، انثنت ساقاه قليلاً ، بدا توتر عروقه ، شفتاه المضمومتان، عيناه المغمضتان ، ارتجافة .. صغيرة عبرت قدميه ، عم إسماعيل تراجع مبتعداً دهشاً ، عكس المتوقع أن يتقدم ويساعد !

خطا إلى الأمام ، وصل إلى الركن الأيمن ، على مهل مال حتى لامس البرميل الأرض ، ضرب عم إسماعيل الأرض محاولاً اللحاق بما يشبه سحلية صغيرة سرعان ماولت هاربة بعد رفع البرميل الذي لم يزحزحه أحد من مكانه منذ استقراره هنا .

فرد قامته ، مبرزاً صدره ، حرك عنقه مرتين ، إلى اليمين ثم إلى اليسار ، سمعت طقطقة عظامه ، أخذ نفساً عميقاً التفت إلى عم إسماعيل ، أشار إلى ألواح النحاس ، بعضها قطره متر ، أما السمك فيتراوح بين ملليمترين وأربعة. بالنسبة للبرميل تعد عنده كمناديل ورقية ..

- يا الله معاً يا عم إسماعيل ..

لم يهدأ ، لم يلتقط أنفاسه ، لم يجلس إلا بعد ترتيب ألواح النحاس

والصناديق الخشبية ، بدا واضحاً أنه لا يحتاج إلى مساعدة إسماعيل الساعي، أما طلبه المساعدة فلإشراكه بشكل ما ، أو تواضعاً منه ، أليس ترتيب البضاعة من صميم عمل الساعي ..

الحق أن الوضع اختلف تماماً في نهاية اليوم ، رصت البضاعة بترتيب ، اتسع الفراغ المتاح ، في بداية اليوم التالي أتى معه بمستطيلات من الورق المقوى ، كتب اسم كل صنف بخط منمق ، جميل ، مستخدماً لونين : الأزرق، الأحمر . استفسر عن الأسعار . كتب الأرقام بالأسود الغميق . بين الحين والآخر يتراجع مقطباً عينيه ، أحياناً يبدي رضاه . مرات يهز رأسه بسرعة . نافياً شيئاً ما في خاطره ، وقد يلوِّح بأصبعه .

بعد انتهائه يروح ويجيء ، يمسك قضبان النافذة بقوة ، يهزها ، يلتفت صوبي . مبدياً إعجابه بشغل زمان ، ودقة الصناع . لم يهدأ قط . مكثه جالساً أو ثباته واقفاً لم يستمر إلا ثوان معدودات ، لم يلامس المقعد إلا وفارقه ، لم يتجه إلى الباب إلا وانثنى راجعاً ، ذراعاه في حركة دائمة ، يرفعهما ، يخفضهما ، يفردهما إلى أقصى مدى ، يحرك عنقه في تمارين رياضية متتالية ، يشب على أطراف قدميه ، يستند إلى الجدار مائلاً ، يبدأ تمرين الضغط ، يؤديه مرات خلال النهار .. يلتفت فجأة ، يستفسر عن الرياضة التي أمارسها ، أهز رأسي ، أقول إن أقصى ما أقوم به ... المشي ، يرفع أصبعه محذراً ..

– لكن اللياقة البدنية مهمة جداً ..

يتابع بعد لحظات لم يتوقف خلالها عن الحركة ..

– أنت لا تفارق المكتب ..

أقول إن طبيعة عملي تقتضي ذلك

– لكنك لا تكتب الفواتير طوال اليوم ..

أبسط يدي متوقفاً عن الحوار . الحقيقة أنني لم أكن أقضي وقتي متأملاً ،

اعتدت أن أصحب كتاباً ، أقرأ صفحاته خفية أثناء توقف الصناع عن التردد ، توقفت منذ مجيء فوزي خشية وشايته إلى المدير الذي يبحث دائماً عن الهنات والأخطاء . طوال النهار يطوف على الدكاكين والورش ، والمتاجر ثم يظهر فجأة بقامته القصيرة أمامي ، يوجه أسئلة متوالية ، يقلب الأوراق ، يراجع دفتر الفواتير . يطلب إيصالات الإيداع التي أطلع عليها من قبل ، يفتح الصوان ، يحصي لفات الورق المذهب ، أو ألواح النحاس ، مبدياً الشك في أسئلته ، أو ملوحاً بدهائه ، وذكائه كيف لا تفوته شاردة أو واردة . يعلم بما يجري في غيابه ، يفهم التلميحات الكامنة وراء الألفاظ المنطوقة عرضاً ، عندما ينفرد بي يؤكد أنه رحب عندما عرضوا عليه التحاقي بالجمعية إثر خروجي من المعتقل ، وإبعادي عن عملي الذي كنت أسافر خلاله أسبوعياً إلى المحافظات ، يهمس لي بتعاطفه مع اليسار ، ولكنه ضد التطرف ، مرات أخرى يذكر عَرَضاً مقابلاته مع بعض ضباط المباحث العامة . بما يعني أن حركاتي وسكناتي مرصودة .

أضمرت الحذر ، خاصة إخفاء ما أصحبه من كتب في مظاريف صفراء تبدو عادية ، اتقاء للفضول ، وربما لصدور ملاحظة تستهدف تأكيد الفروق الوظيفية . فوزي يبالغ في احترامه للمدير ، لا يخاطبه إلا واقفاً على مسافة فاصلة يناديه «سعادة البك» ، بمجرد دخوله يسأله عن عوض بك .

هل يتواجد في القاهرة ؟

ما أحواله الصحية ؟

هل سيذهب إلى المقهى الليلة ؟

يجيب فوزي باختصار مبهم ، يتحدث المدير أمامنا عن اهتماماته السياسية القديمة ، كفه بعد تعرضه للمضايقات ، أما فوزي فيعتبر نفسه ممارساً ، أليس أحد المحيطين بعوض بك ، لا يكف عن النشاط في المنطقة ، خاصة في النادي ، أصغي صامتاً ، لم يكن العمل السياسي وقتئذ عندي إلا

الجهد المبذول لتغيير الواقع إلى الأفضل .

كثيراً ما ضقت بوجوده ، خاصة مع استمرار الصمت لفترات طويلة ، قليلة موضوعات حواراتنا ، عدا الحديث عن البضاعة المنتظرة والأرصدة المتبقية والفرق المتزايد بين أسعار الجمعية وأسعار السوق السوداء ، أحياناً نبدي الآراء في بعض أصحاب الورش ، والحرفيين ، تعرف عليهم ، زار معظمهم ، وبدا كأنه يعرف بعضهم منذ زمن طويل ، الحاج سعيد الصدفجي وصالح منافسه الرئيسي ، عم مصطفى النقاش ، وعم إبراهيم ، والحاج سيد صاحبا ورشة الفضة ، الحاج القربي تاجر الجلود الخام ، والحاج ياسين صاحب الورشة المتخصصة في السجاد طراز بخاري ، طريقة النسيج وصباغة الألوان ودقة الوحدات الزخرفية ، حتى أن أشهر خبراء السجاد في العالم لم يكن قادراً على التمييز بين السجادة المصنوعة في آسيا الوسطى ، وتلك المنسوجة على أنوال الحاج ياسين في ربع السلحدار . لكن شهرة الحاج لها مصدر آخر ، إدمانه للخمر . حتى عُرف عنه أنه يشرب على الريق نصف زجاجة ويسكي !!

سعى فوزي إليهم ، جالسهم ، أطال النقاش معهم في أمور شتى أبدوا ارتياحهم له ، خاصة بعد أن علموا صلته الوثيقة بعوض بك النائب والضابط السابق ، لكل منهم مشاكله مع التأمينات والضرائب ومصلحة الكهرباء والمياه وغير ذلك . عوض بك ليس عضواً عادياً في البرلمان بحكم تاريخه ، وفوزي مفتاح الطريق إليه .

لم يكتف بأصحاب الورش في الربع . إنما سعى إلى متاجر الخان الكبيرة . والورش البعيدة في الباطنية والكفر والعطوف ، توثقت علاقته بهم خاصة بعد الصفقة الكبرى التي عقدها المدير من خلال مصدر أرمني قديم . كان متخصصاً في المحافظ الجلدية ذات النقوش الفرعونية ، أقنعه المدير بعد جهد بتوسيع مجاله إلى الحقائب الجلدية المصنوعة من جلود الجمال ، والأحذية ، والمشغولات الفضية .

قال إن الزمن تغير ويجب أن يعمل كل إنسان على تمشية حاله ، خاصة أن الخان كله يمر بمحنة بعد هزيمة يونيو التي لم يمض عليها إلا شهور معدودات . المراكب لا تأتي بعد إغلاق القناة . والبمبوطية توقفوا ، بل تم تهجيرهم من بورسعيد والسويس ، أما الأجانب فنادراً ما يظهر سائح منهم .

المهم .. نجح المسيو كمكيان في عقد صفقة ضخمة تتم من خلال الجمعية لأسباب إجرائية تتعلق بتسهيل المعاملات الإدارية ، مع ثلاث دول اشتراكية ، بولنده والمجر وتشيكوسلوفاكيا ، لتصدير مائة ألف زوج من البلغ الجلدية الملونة ، المنقوشة برسومات فرعونية ، اعتبر المدير ذلك نجاحاً كبيراً رغم فشل مسعاه بعد رفض الدول الثلاث استقبال وفد فني لتسليم البُلغ في عواصمها ، تقرر أن يتم ذلك في الاسكندرية .

تفرغ فوزي للإشراف على التنفيذ بعد أن صدر قرار داخلي كتبه المدير وعلقه بنفسه عند المدخل . اقتضى هذا جهداً كبيراً بدءاً من استدعاء أكبر العاملين في صناعة البُلغ إلى أصغرهم . كانت المفاوضات شاقة تستغرق وقتاً غير قصير في معظم الأحيان ، أي تخفيض ولو يسير في التكلفة سيزيد أرباح الجمعية ، كان فوزي يهز رأسه مؤمِّناً مؤكداً كل ما يقوله المدير ، يتدخل أحياناً مردداً عبارة سمعتها منه كثيراً فيما تلى ذلك خلال مناقشة الصفقات..

– اسمع ياحاج .. أحسن نقطع العرق ونْسَيَّح دمه ..

ثم يتطلع إلى المدير الذي ينطق رقماً بلهجة حادة ، ويكون ذلك الحد الفاصل بالفعل ، حتى أيقنت أن ثمة اتفاقاً ما بينهما .

الجزء الأكبر من البُلغ ، كان من نصيب الحاج بديع ، ورشته ناحية الغورية، رجل يميل إلى بدانة ، يرتدي عوينات إطاراتها معدنية ، عنده خفة ظل ويُسر دعابة وفيض من النكت

أما الحاج السني فمن أشهر رجال الباطنية بعد تجار المخدرات كنت

أعرف قدومه من خلال الرائحة التي تنتشر حوله . تتقدمه وتتخلف عنه إلى مسافة كبيرة ، نوع نادر من المسك المعتق ، تخصص في إعداده رجل نوبي يبيع العطور بعد تحضيرها في سوق الحمزاوي القديم ، ومما يتردد في الخان أن أربعة في الدنيا يستخدمون هذا النوع من المسك . منهم شيخ المولوية بمدينة قونية التركية ، وإمام المسجد القديم بمدينة مزار شريف في بلاد الأفغان ، وخادم ضريح سيدي محرز في تونس .

وزع جزءاً من الصفقة على عدد من الصناع الصغار العاملين في بيوتهم ، سرعان ما ترددت إشاعات وسرت أقاويل بعضها لا أدري مصدرها ، قيل إن اتفاقيات عقدت سراً ، وأن عمولات دُفعت ، المدير اتفق مع بديع والسني ، بل إن عوض بك ناله نصيب لا بأس به ، ومن المؤكد أن له دوراً خفياً ، سياسي الطابع في سبيل إتمام صفقة البُلغ ، أما الذي سعى بين الأطراف المختلفة بحذق وتولى المناقشات ، علنية أو سرية فهو فوزي .

لكن الحقيقة أن الكافة اتفقوا – رغم الأقاويل – على أهمية الصفقة في تشغيل عدد كبير من العمال وجريان أرزاقهم في وقت عسرت فيه الأحوال ، وتوقفت الحركة حتى أن كثيراً من عتاولة الخان أفلسوا أو بدأوا ينفقون من اللحم الحي ، من رأس المال !

لم تتغير أحوالي خلال تنفيذ البُلغ ، تفرغت لتسيير الأمور اليومية ، أما فوزي فأبدى نشاطاً دافقاً ، حتى ليدركني إرهاقاً كلما استعدت بالمخيلة حركة، ذهابه ، عودته ، مروره يومياً مرة أو مرتين على كافة الورش ، جلوسه إلى أصحابها ، إلى العمال ، مراقبته تنفيذ العدد الهائل بدقة ، فحصه عينات ينتقيها من الصناديق تلقائياً ، اختباره الألوان الذهبية المطبوعة ، وصحة الرسومات ، والحروف الهيروغليفية ، وأوضاع الكليشيهات ، ومواد لصق النعل . كان يشم الجلد ، ويضرب الحذاء أحياناً على ركبتيه ، يفض الأكياس المحكمة إذا شك في شيء . ومرة ملأ طشتاً بالماء ونقع فيه ثلاثة

أزواج من البُلغ ، لم يعلق على بهتان الألوان ، ولكن عندما انفصلت النعال قلم واقفاً مبدياً غضباً شديداً ، وقال إن هذا إساءة لسمعة البلد ، ويكفي ما جرى ، يكفي ما جرى !

لم أفهم تلميحه وإن ظننت أنه يشير إلى هزيمة يونيو ، ويبدو أن لهجته حوت تهديداً لما ، حتي أن محمود فراولة صانع هذه البُلغ أقسم أن ما جرى تم من وراء ظهره ، وأنها مكيدة من امرأته التي تظن أنه سيتزوج عليها بنتاً تعمل في مصنع السجاد اليدوي بالدراسة أصغى إلى فوزي أثناء حديثه إلى الحاج بديع والسني مستخدماً المصطلحات والمفردات الخاصة جداً بالصنعة ، الحاج بديع أكد أكثر من مرة أن فوزي يفهم الآن أسرار الصنعة أفضل من أصحابها ، يشير إليه بإصبعه مخاطباً المدير ..

- تصور يفاجئني الثانية بعد منتصف الليل .. تصور ..

ثم يقول معجباً

- عرفت تختار ياباشمهندس ..

يصل فوزي في الصباح الباكر قبل مجيء عم إسماعيل الذي يحتفظ بمفاتيح الباب والقفل الكبير . والآخر الصغير ، ينتظر فوزي في الممر ، أما يلف المشى المطل على الطابق التحتي للوكالة ، أو يتحدث إلى عم جمعة القهوجي الذي يعد النصبة وَيَصُفُّ علب الشاي ، والقهوة والزنجبيل والقرفة ، بعد وصولي يتحدث إليَّ قليلاً ثم يتطلع إلى الأرفف ، إلى الزوايا والأركان ، يرتب بعض الأشياء ، ثم يلتفت فجأة ليخبرني بتفاصيل جولته اليومية حتى يعرف المدير أين هو بالضبط ؟

يمضي بسرعة ، أحياناً يعود في الثالثة ليأكل لقمة ، أكلته المفضلة رغيف محشو بلحمة الرأس ، يلتهم الطعام بسرعة ، يحرك فكيه في حركة دائرية . بمجرد انتهائه يقوم واقفاً ، يفرد ذراعيه ، يقبض يديه ويفرد أصابعهما . أو يقف على أطراف قدميه رافعاً ذراعيه إلى أقصى مدى ، أو يمسك خصره

براحتيه ، يميل بنصف جسده الأعلى إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، فجأة يكف.. يقول إنه ماض لمتابعة جولة على مصانع البُلغ .

ينصحه عم إسماعيل بشرب كوب شاي حتى تستريح الأكلة في معدته .

يهز أصبعه . يقول إنه لابد من اليقظة التامة إزاء هؤلاء الصناع .

لو غفلت العين عنهم لحظة واحدة سرعان ما تقع الأخطاء .

بعد انصرافه يرد عم إسماعيل أنه لا يهدأ .

فيما بعد كرر مراراً ، أنه لم يكن يقعد على حيله قط !

دائماً في حركة دائبة ، بعد الانتهاء من تسليم الصفقة بدا حائراً ، يكثر من المشي في حيز الغرفة الضيق ، يجلس ليقوم على الفور ، ويقف ليطل من النافذة ثم ينثني إلى الباب ، لكن سرعان ما بدأ العمل . لإعداد جناح الجمعية في المعرض السنوي ، أسند إليه المدير الإشراف على أعمال النجارة ، ولكن استلام البضاعة من السوق احتفظ به لنفسه ثم طلب مني مشاركته .

قبل بدء المعرض بيومين ، دخل عليّ عم إسماعيل ، قال إن الأستاذ طلب من شوقي الصدفجي عضو مجلس الإدارة الذهاب والوقوف في الجناح وإدارته حتى انتهائه ..

– والأخ فوزي ؟؟

قال عم إسماعيل بلهجة فيها الدهشة والأسى :

– مريض ..

أبديت أيضاً تعجبي ، كأنه ليس من المتوقع أن يمرض فوزي كسائر البشر ، قال عم إسماعيل إنه يرقد في البيت .

– هل وصل الأمر إلى حد الرقاد ؟

قال إن وقعة أمثال فوزي تكون شديدة ، فكرت فيه ، وشعرت بافتقاده إلى حد ما ، لاحظت أن المدير لم يستفسر عنه ، ولكنني عندما علمت بتردد عم إسماعيل عليه يومياً طلبت صحبته لأقوم بالواجب .

يسكن فوزي قرب ميدان الجيش ، في شارع ضيق صغير قرب مستشفى القوات الجوية . استقبلنا مرتدياً جلباباً وطاقية غيرت ملامحه ، اعتدته مكشوف الرأس ، لكن شحوبه بدا شديداً ، غارت عيناه إلى الداخل واستطال أنفه . يتحرك على مهل ، ويمسك أحياناً جنبه ضاغطاً شفتيه ..

– سلامتك .. لا أتصور أنك مريض أبداً ..

تطلع إليّ

– ما ضعيف إلا بني آدم يا أخي ..

لأول مرة يخاطبني بأخي ، دائماً ينطق اسمي مسبوقاً بالأستاذ ، ولأنه أكبر مني سناً ، رجوته أن يناديني باسمي مجرداً ، لكنه أصر ، كان يبدي دائماً الحرص على إبقاء مسافة غير مرئية بينه وبين الآخرين .

جلس مطرقاً ، لم يشكُ ، لم يفصل أحواله كعادة المرضى عندما يشرحون لزوارهم ما حل بهم ، أشار بيده ..

– اعمل لنا شاي والنبي يا عم إسماعيل ..

أبيت ، لكنه أصر ، إذن .. يعيش بمفرده ، لا أدري متى قال أمامي إنه سعد جداً عندما حضر عوض بك وسهر حتى الفجر ؟

حاولت النظر خلسة إلى الصور العديدة المعلقة في المواجهة .

امرأة في الأربعينيات تقف إلى جوار رجل يرتدي طربوشاً ويمسك عصا ، إمضاء المصور واضح وبحروف أنيقة ، عنوان الاستوديو ، اللون الأسود يميل إلى البني الغامق بتأثير القدم .

ضابط كثيف الشارب ، لا يرتدي السترة الخاصة بالجيش المصري ، أهو تركي ؟ إنجليزي ؟ لا أدري .. لكن ملامحه ليست مصرية ، مؤكد ! أطفال صغار داخل إطارات بيضاوية ، دائرية .

عاودت النظر إلى صورتين .

الأولى له ، إلى جوار شابة ممتلئة ، طويلة الشعر ، يحيط كتفها بيده ،

يقفان وسط حديقة .

الثانية لشابة أخرى ، وجهها طفولي تتطلع إلى فوزي باسمة ..

حرصت ألا يلحظ اتجاه نظراتي إلى الصور غير أنه تطلع إليّ من أسفل ، من عينين مطرقتين ، أصابع يديه متشابكتان . أصر على أن يودعنا حتى الباب الخارجي ، رجوته أن يخبر عم إسماعيل بما يحتاج إليه ، بما يمكن أن أقدمه في أي وقت ، بسط يده فوق صدره ، بعد خروجنا همس عم إسماعيل ، قال إنه لا يدعه يحتاج إلى شيء ، يومياً بعد خروجه يمر عليه ،

– لكن .. أرجوك لا تخبر المدير ..

لم أعلق وإن أضمرت حيرة ، يبدو أنني بعيد عن كثير مما يجري ، سألت المدير عما إذا كان زاره ؟ تطلع إليّ بشفتيه المزمومتين دائماً هز رأسه نفياً .

عاد بعد أسبوعين ، استقبلته مرحباً ، خرجت إلى عم جمعة ليعد كوبين من الشاي . ظل ملازماً المقعد ، ثم رائحة مطهر تنبعث منه ، يتطلع في اتجاه واحد ، صامتاً . لا يتحرك ، يسألني بين فترة وأخرى عما إذا كنت متضايقاً من وجوده فأنفي ، أقول إن وجوده يؤنسني ، في الحادية عشرة جاء المدير ، بدا مفاجَئاً بظهور فوزي ، على الفور أدركت أن ثمة أمراً بينهما .. خطا بقامته القصيرة متمايلاً ، توقف إلى جواري ، طلب الاطلاع على دفتر تسليم لفافات الورق المذهبة .. قال بلهجة حادة ..

– أريد مزيداً من الدقة ..

استدار منصرفاً بدون إلقاء السلام ، بعد ساعة ونصف رجع ، خاطبني على مسمع من فوزي الذي بدا صامتاً ، مزموم الملامح ، طالبني بالاستعداد لمراجعة مستندات الطلبية الخاصة بالبُلغ . فجأة .. قام فوزي متحاملاً على نفسه ، قال بحدة :

– شوف ياباشمهندس أنا سأريحك تماماً ..

تطلع إليّ ..

- ورقة من فضلك ..

انحنى ممسكاً خصره ، يغالب أوجاعاً خفية لا أدريها ، خط سطوراً قليلة منسقة ، توقف لحظات ثم استأنف ، بعد أن وقع اعتدل مواجهاً المدير الذي راح يتطلع إليه من وراء نظارته الغامقة ..

- تفضل .. استقالتي ..

بسرعة ، بتحد واحتقاء ، وقع المدير قائلاً :

- وأنا قبلتها ..

ثم قال منذراً :

- والله .. لولا خاطر عوض بك لأدخلتك السجن ..

لوح فوزي بإصبعه منذراً ..

- أنا أو أنت ؟

ركزت بصري على المدير الذي بذل جهداً لإخفاء ارتباك ما ، التفت إليّ ، مشيراً بإصبعه ، يشهدني ..

سامع ؟

كنت في حيرة ، ليس عندي خلفية ، بما يجري ، لذلك لزمت الصمت وإن ضقت بتصرفات المدير التي بدت عنيفة لا تناسب ضعف فوزي وإعيائه . انصرف بخطى واهنة . لم يحتفظ بمكتب خاص به ، أو أوراق ، كان شغله دائماً في الخارج خلال مدته القصيرة .

بقدر ما ضقت بوجوده في بداية التحاقه بقدر ما افتقدته ، عدت إلى أوقات وحدتي الطويلة ، وإصغائي إلى إيقاع النهارات المتوالية . لكنني كلما شرعت في القراءة شرد ذهني ومثل أمامي بالمخيلة . لا يقطع عزلتي إلا مجيء الصناع والصبية، أكتب الفواتير ، أعد النقود بحرص وحذر ، بينما يقوم عم إسماعيل بصرف الأنصبة . أحياناً .. يجيء المدير فجأة كما اعتاد . لكنه لم يعد بمفرده . إما يرافقه بعض كبار تجار الخان أو بعض المصدرين ،

غير أنه بدأ يظهر بصحبة أجانب يتحدثون الإنجليزية ، كان يتحدث إليهم مُنَشِّطاً لغته الأجنبية الركيكة ، يتبادل معهم البطاقات ، ويدعوهم إلى الغداء في مطعم الدهان الشهير بتقديم لحم الماعز المشوي على البخار .

قال على مسمع مني إنهم من كبار المستوردين في أوروبا الغربية ، وفي أمريكا ، وإنه آن الأوان لتصدير منتجات الخان إلى الغرب على نطاق واسع ، هكذا .. ستجري العملة الصعبة بين الأيدي وتمتلئ الخزانة الرسمية .

- والله لا أنام .. أصحبهم إلى كل مكان .

- وأصرف من جيبي لينشط الخان ويزدهر .

لكن عم إسماعيل أفضى إليّ بعد سماعه بالأيمان المغلظة أن المدير يعمل لحسابه ، وأن أصغر صنايعي في الخان يعرف ذلك الآن ، وأنه يخطط للهجرة إلى أمريكا . هو الذي يستورد ، ويبيع هناك ، أما وكيله في مصر ، الذي سيجمع له البضاعة .. تصور من ؟

- من ياعم إسماعيل ؟

احلف ألا تقول لأن الموضوع تطير فيه رقاب ..

- والله لن أتكلم ..

يقترب مني عم إسماعيل

- عوض بك ..

لم أُخفِ دهشتي ، لكنني لزمت الصمت ، لم أعلق ، أهم ما يشغلني تدقيق المبالغ الواردة والمنصرفة وتحديد المبلغ النقدي الخالص الذي أودعه البنك صباح كل يوم . في صمت كنت ألاحظ حركة المدير خاصة بعد استحداثه بنداً جديداً للإنفاق ، إذ قال إن الجمعية مقبلة على نشاط هائل ، وإنه لا يستطيع أن يسد بمفرده تكاليف الدعوات ، لابد من تخصيص مبلغ للصرف منه على العلاقات العامة . وافق مجلس الإدارة .

ألح عليّ فوزي لحظات كثيرة . أين ذهب ؟ ماذا عن علاقته بعوض بك

بعد اقترابه من المدير وبدء تأسيس مشاريعهما المشتركة البعيدة تماماً عن الجمعية ؟

قال عم إسماعيل إنه لم يره منذ خروجه متعباً ظهيرة هذا اليوم ، ويبدو أنه اختفي من الجمالية كلها ، لكنني قابلته صدفة بعد ثلاثة أشهر من استقالته وقبيل أسبوعين من إعادتي إلى مقر عملي الأصلي ، كان يجلس بمقهى الفيشاوي القديم . بصحبة رجل قصير ، بدين ، لهجته شامية ، قال إن أحواله تمضي على ما يرام ، وأنه يعمل في التجارة .

– أخا العرب هذا ساعدني ، أسافر لحسابه كل شهر وأرجع بشوية بضاعة آكل من ورائها عيش ..

أومأ الشامي ، مبتسماً أدار فوزي ابهاميه حول بعضهما قائلاً إن أحواله ميسورة والحمد لله ، سألني عن عم إسماعيل ، رجاني أن أحييه بحرارة ، إنه رجل من الزمن القديم ، مثله نادر الآن .

كم انقضى .

عام إلا قليلاً ، ولكن الأمور جرت بأسرع مما قدرت ، رجعت إلى عملي في الدقي ، وسافر المدير مهاجراً إلى أمريكا ، باع شقته وعربته الفولكس الصغيرة ونزح . عوض بك فتح مكتباً للتصدير في عمارة بنزايون التي بنيت في مطلع الثلاثينيات وظلت خالية أربع سنوات لا يقبل على سكناها إنسان . لأنها أعلى من المسجد الأزهر ، ثم قطنها البعض ، الآن .. الحجرة الواحدة فيها يُكلف تأجيرها عشرات الألوف من الجنيهات . عم إسماعيل كما هو ، شوقي الصدفجي يدير شئون الجمعية التي وهن دورها ، وأصبح قاصراً على بيع لفات ورق الذهب . حتى تلك بدأت تتوفر في الأسواق ، ويقال إن المدير هو الذي يرسلها من الخارج ، إنه عالم بأدق تفاصيل السوق ، ومن مكتبه في نيويورك يدبر مما يحتاج إليه الخان بأعلى الأسعار ، بعد أن احتاط عوض بك تماماً على السوق ، ويستورد المنتجات من نحاس منقوش وجلد ملون وخشب

مطعم وفضة مشغولة وتماثيل منحوتة ، يجمعها عوض بك بالأسعار الأدنى ، ويعلم الله كم تباع في أمريكا وأوروبا ؟

لم أنقطع عن تتبع أخبار الخان ، والترددعليه ، وتحية معارفي القدامى ، وراحتي إذ يذكرون أيامي ، حتى أن أحدهم قال على مسمع ..

- والله أنظف من عمل بالجمعية .. لو شاء لجمع ثروة من ورائها .. خربوها .. جازاهم الله ..

فوزي ، أين هو ؟ ، دائماً يروح ويجيء على بالي ، حتى فوجئت بمن يعترض طريقي ذلك العصر عند عبوري ميدان مولانا وسيدنا الحسين ، حقاً .. لم أعرفه في البداية ، مجرد صورة باهتة لأصل رأيته يوماً ، نحل حتى بان عظم وجنتيه ، أما قوامه الرياضي المشوق فتوارى تماماً ، منحن إلى الأمام ، يده اليسرى ترتعش ، تطلع إليّ بعينين تؤطرهما قتامة ، وينشع منهما تعب..

احتفظ بيدي ، هوى محاولاً تقبيلها ..

- ساعدني يا أخي الله يعمر بيتك ..

١٩٨٩

لا ..

غير ممكن ، مستحيل !

لكن .. هذا ما رآه ، ما أحاط به بصره ، ما فوجئ ، ما بوغت به .

نظراتهما التقتا ، تماستا ، أما هي .. فكانت مولية ظهرها العاري ، بسرعة توارى مغلقاً الباب المزود بالة تمنعه من الاصطدام بغتة . ظل واقفاً لحظة .. لحظات ، لا يقدر على تحديد المدة ، حط عليه ثقل وسرى إليه متمدداً ، مبتدئاً إيلامه ، برغم هروع دقات قلبه ، ونفور عرقه ، أسرع مبتعداً إلى نهاية الممر ، لم ير الساعي النوبي صارم الملامح ، يقولون في المؤسسة إنه لم يفارق مكانه أمام مكتب سيادته منذ أن كان رئيساً لقسم . ثم مديراً لإدارة ، ثم مديراً عاماً .. حتى أصبح متولياً على المؤسسة كلها . واضعاً يده على كل مئونتها ، متصرفاً فيها كما يشاء ، لا يعبأ بشكاوى ، أو تعقب الأجهزة الرقابية ، أو ظهور بعض مقالات تتضمن نقداً صريحاً أو تلميحاً ، ذلك أن صلاته بالجهات العلوية متينة ، لا يتطرق إليها الشك ، من هنا كان منيع الجهة ، ثقيل الوطأة ، غتتاً مع الخلق ! النوبي لم يفارقه قط ، حتى قيل إن حركاته في الممر متوافقة مع سيادته في الداخل إذا قعد فإن البك يستقر في مقعده الوثير ، وإذا مشى في الممر المفروش بسجاد قديم ، نفّاذ الرائحة يعني ذلك أن سيادته يقوم برياضته اليومية داخل المكتب الفسيح دائري الشكل ، يحوي منضدة اجتماعات وأرائك ، وجهازاً للتليفزيون ، ومذياعاً قديماً ضخماً ، متعدد المفاتيح ينتمي إلى زمن الحرب العالمية الثانية .

للأسف ، خلا الممر تماماً حتى من النوبي ، كان ممكناً أن يمنعه ، يوقفه . لكن جرى ما جرى !

في هذه اللحظة الخاطفة ، ما بين فتحه الباب وإغلاقه بسرعة رأى هذا

كله، احتواه ، ألم بالتفاصيل ، رغم تطلع سيادته الدهش ، المستنفر مفاجأة وعرة ، يضغط شفتيه بعد ولوجه المصعد ، لكنه لم يقتحم ، إنما مر كعادته بمدير مكتبه الجالس وراء حاجز زجاجي أول الممر ، ألم يستأذنه ؟ ألم يسمح له بالاتجاه إلى المكتب مباشرة ؟ ماذا كانت تعني هزة رأسه إيماءة الموافقة ؟ يقال إنه ملم بكل ما يجري هنا ، والمؤكد أنه يمت إليه بصلة قرابة ، لكنها مجهولة لكافة العاملين ، إلا بتحمل المسئولية ؟

ألم يعلم بوجودها عنده ؟ بالقطع مرت عليه .. ربما طلعت من المصعد الخلفي الذي ينزل فيه الآن ، لكنه دائم الدخول والخروج بدون استئذان ..

لماذا سمح له بالمرور إذن ؟

إنه لا يريد لقاء أي شخص الآن ، إنه في حاجة للانفراد حتى يخف أمره وتروق ملامحه . يلج دورة المياه ظل واقفاً مغمض العينين وعنده طنين يعرف العبارات المكتوبة ، الشتائم المقزعة ، الرسوم الفاضحة ، عبارات من أغانٍ شائعة ، بتلقائية مد يده إلى جيبه ، أمسك قلمه ، رسم بسرعة خطوطاً خارجية مبرزاً ردفين مستديرين ، ثقيلين ، تامين ، مستسلمين تماماً كما رآهما ، لكنه لم يستطع أن يرسم يدي سيادته اللتين أحاطتا بهما .

هكذا .. رآهما !

يستحسن ألا يغيب عن مكتبه ، ربما يطلبه ، لا يدري ماذا سيجري ، لكن الأمور في الأيام المقبلة لن تكون أبداً كما كانت من قبل .

يفارق الدورة ، يقطع الممر ، يحاول أن يبدو هادئاً ، متماسكاً ، لا عوج في مشيه ، بل إنه يحيِّي العاملين في قسم الفحوص الفنية ، ينظر إلى فتاة التحقت بالمؤسسة منذ شهرين ، يلتفت متابعاً خطوها ، تبدو مؤخرتها ضعيفة بالقياس ، لكن ما أقدر الثياب على الخداع والتمويه ، يتساءل : هل عرفت وضعاً كهذا الذي ألمَّ به . يأوي إلى مكتبه ، يرد على محدثيه بتلقائية ، متخيلاً ما جرى بعد ظهوره الخاطف ، كيف رآه سيادته ؟ هل أنهى أم استمر ؟

كيف يفكر فيه الآن ؟ لو استدعاه الآن ، سيمضي إليه جامد الملامح ، خافض البصر ، تماماً كما اعتاد ، لن يبدي أي انفعال أو إشارة تبدو في غير موضعها . كأنه لم ير شيئاً قط ، لم يطلع على الوضع ، لم يأت أصلاً .

لو اتصل سيادته ، لو استدعاه الآن !

لكن الهاتف هامد ، لا رنين ولا استدعاء ، تأخر عن الانصراف ، تظاهر بترتيب أوراق ، وعندما قطع الممرات الخالية ، التي خلت من الضجيج تساءل عما يحدث بعد الظهر والمبنى كله خال عدا الطابق العلوى ؟ لكنه سرعان ما طرد الخاطر عن ذهنه ، ربما انعكس تعبير ما على ملامحه ينم ويشف على ما يقصده .

عند اجتيازه المدخل الرئيسي رفع حارس الأمن يده . جاوبه التحية موشكاً أن يسأله عن سيادته ، غادر أم لا ؟ ، لكنه رأى مكان العربة خالياً ، موضع مخصص لها أمام المدخل لا يشغله أحد حتى لو كان في إجازة أو مسافراً خارج القطر أو في جولة للإطمئنان على الأراضي المستصلحة حديثاً .

ما شغله هذا اليوم ، ما أقضّه وقلقله . تساؤله الممض .

كيف يفكر سيادته ! أي أذى سيلحقه به ؟ كيف ؟

هل يدبر له أمراً ؟ هل يصدر قراراً بنقله إلى جهة نائية أو يلفق له تهمة ؟

أرِق طوال الليل ، لكم كان بوده البوح ، التخفيف عن نفسه ، الاستجابة لاستفسارات امرأته المتتالية ، المتزايدة عن سبب شرود بصره ، وتباطؤ ردوده، ونحول حاله ، هل ضايقه أحد ؟ هل وصلته أخبار سيئة من البلدة ؟ هل وقع مكروه ؟

رغب ، تمنى لو يحكي ، لو يقص عليها ما رآه ، لو حدثها عن زوج زميلته التي رآها عارية ، ملقية بمؤخرتها إلى الوراء ، إنه قصير ، أصلع يجيء كثيراً لينتظرها ويصحبها عند انتهاء عملها ، أما هي فلم يتطرق شك إليها يوماً مع أن الألسنة لم تدع إحداهن ، كانت راسخة ، قديمة الهيبة ،

هادئة الجمال ، شديدة الحشمة ، من كان يظن ؟ لو قص أحدهم عليه لما صدَّق، لكنه رأى ، ليته ينفي المشهد كله من ذهنه ، من مخيلته ، لو يمحو اللحظة ، لو أن ما جرى لم يجر ، لكن الصور تتوالى عليه حتى انتبه مرعوياً .. إنه يسترجع متمهلاً ، متلذذاً ، مستثاراً بما رآه من كامل استدارة وعظيم امتلاء وانحناء مطيع متأهب ..

في المقهى يرمي النرد شارداً .

– مالك ؟

يتطلع حائراً ، كاتماً ، يقوم قاطعاً الطريق إلى بيته مجرجراً خطاه ، بطيء النظر ، قليل الصادر ، كثير الوارد . في الصباح جرح نفسه مرتين أثناء حلاقة لحيته . عند خروجه قالت امرأته :

– تخفي عني مكروهاً ..

واجهها بصمته .

– أعرفك .. قل لي وأرح نفسك ..

يطالعها ، بملامح شاكية ، ودمعات معلقة ، دانية . أثناء نزوله السلم يتصاعد غضب عنده ، برم بنفسه ، من يحق له أن يخشى ؟ من ارتكب خطأ .. أليس هو ؟ مارآه بعينيه تجاوز كل حد ، صحيح أن بعض العاملين يتناقلون سراً عن غرامياته ورؤيته في الضواحي ، وصالات الفنادق بصحبة فتيات صغيرات .

لكن ... في المكتب ، ومع إحدى الموظفات المتمكنات ، هذا مالم يسمع به، كان ممكناً أن يثير فضيحة . أن يفتح الباب على مصراعيه ، أن يصيح داعياً الآخرين ، أن يشعل الفضيحة ، أن يبلغ الأمر السلطات الأعلى ، بالتالي .. يؤثر ذلك على مكانته ويهز صورته . إذن .. لماذا يخاف ؟ لماذا الخشية ؟

لكن . لو أنه زعق ، من كان سيلبي ؟ لم يكن على مقربة منه إلا مدير

المكتب ، لماذا سمح له بالمرور ؟ لماذا ؟ . لو أن النوبي لزم موقعه لما اقترب ، ليته لم يفارق البيت ، ليته توعك هذا اليوم ! فليحاول أن يبدو هادئاً ، أن يحد من حركته في المبنى ، التصرف بشكل طبيعي مطلوب . الحذر ضروري ، ربما وقع انتقامه فجأة ، بعد مدة ، معروف أنه يسكت فترات ربما تطول أو تقصر ، ثم يقدم على خطوة مباغتة . مفاجئة .

يذكر العاملون بالمؤسسة هذا الشاب الذي التحق بها منذ حوالي عشر سنوات ، كان هادئاً ، دمثاً ، عارفاً بالأصول . مبدياً مودته للجميع ، بعد شهور من تواجده بدأ يستفسر عن اللجنة النقابية ولماذا تم تجميدها ؟ لماذا لا تعمل بنشاط ؟ جهر قائلاً إن المؤسسة ملك الآن للشعب بعد تأميمها ، صحيح أنه مؤسِّسها وصاحبها ، لكن هذا كله تغير ، أما تعيينه رئيساً واستمراره فلا يعني تملكه ، إنما هو موظف الآن كالآخرين .

بعد أسبوعين من هدوء الضجة التي أثارها البعض صدرت مجموعة قرارات ، أحدها يقضي بنقل المهندس الشاب إلى الفرع بمرسى مطروح ، لم يمر شهر إلا وشاع خبر قضية تنظر أمام المحاكم . إذ أبلغ طباخ استراحة العاملين بمرسي مطروح أن الشاب راوده عن نفسه وحاول إرغامه على إتيان ما لم يأمر به الله .

ترى .. ماذا سيدبر له ؟

لكنه لم يبدِ العداوة قط ، وعرف بحرصه على تجنب المنغصات ، وبعده عن القلاقل ، لم يفضِ بما جرى لامرأته حتى ، وأمس أشاد بسيادته وحنكته بعد توقيعه العقد الأخير مع الشركة اليابانية ، وظهوره الواثق المشرف في التليفزيون بعد تبادله الوثائق .

تعمد إبداء الإطراء أمام ثلاثة يعلم تماماً أنهم ينقلون كل كبيرة وصغيرة إلى مكتبه مباشرة .

لم يبد أي بادرة نفار ، لكنه يوشك على لطم خديه عندما يستعيد ما رآه ،

الداهية العظمى أنه شاهد ، اطلع ، كان يفاجأ بنفسه مستغرقاً . مستعيداً اللحظة من جديد ، على مهل يستعرض رقاد سيادته . انزلاقه إلى حافة المقعد الذي يواجه مكتبه . بنطلونه متكوِّم عند الحذاء ، أما هي ..

يقوم مستفزاً ، خشية أن يبدو عليه ما يشي بما يراه ، أو ينطق في حلمه بما يفضح باطنه ، ربما كان مستغرقاً تماماً في استعادة اللحظة ، أو التفكير فيما يدبر له خفية ، عندما رن فجأة جرس الهاتف بعد صمت دام ثلاثة أيام ، لم يطلبه أحد خلالها من الخارج أو الداخل . أصغى إلى صوت مدير المكتب ..

– البك يطلبك بعد خمس دقائق ..

فارق مقعده ، متجهاً إلى الممر الخلفي ، ولج دورة المياه التي دخلها أول يوم ، بمجرد إغلاقه الباب أطلق ريحاً مسموعاً ، شد شعره مقلصاً ملامحه ، ماذا ينتظره ؟ تطلع إلى الجدار ، أحد العاملين المجهولين أضاف سهماً إلى الرسم الذي خطه للردفين العاريين ، بسرعة راح يعمل أظفاره في الطلاء الهش محاولاً طمس الرسم تماماً ..

يناير ١٩٩١

كنت رئيساً لقسم التصميمات وقتئذ ، ولكم داعبته مقلداً لهجته ، هل خص نزيه حكيم بزيارته ؟ هل التقى به خارج المؤسسة ؟

لا أقدر الان على استعادة التفاصيل ، ذلك أن أموراً عديدة جرت ، وأوضاعاً شتى تبدلت ، في بلده قامت الثورة ، أزيل الحكم الملكي . بدأ النظام الجمهوري، شكل المجلس الثوري، ثم جرت أكثر من حركة تصحيحية، جاءت وجوه ، سرعان ما اختفت ،وأطلت أخرى ، لم يخف موقفه ، لم يكتم ، لم يتبدل ، استقال من عمله بالسفارة ، غادر القاهرة نهائياً ، تقلبت أحواله ، تنقل ، عمل هنا وهناك ، أحياناً أسمع عنه . أو تطالعني صوره من خلال مجلات عربية تصدر في أوروبا ، مرة يحضر احتفالاً أقامته إحدى السفارات في باريس ، ومرة بصحبة رجال أعمال آسيويين .

لا أذكر من قال على مسمع مني ، إنه واجهة لتاجر سلاح كبير ، وإن ثروته تقدر بالمليارات نتيجة الدور الذي يقوم به . الغريب .. إنني لم أنس صوته رغم انقضاء المرحلة ، وطول الوقت ، تعرفت تضاريس نبراته ، لم يخف سروره إذ ظن أنه بات نسياً منسياً عندي .

قال إنه رجع إلى القاهرة ليستقر ، أرهقه التجوال والسفر ، صحته لم تعد تحتمل ، عنده شقة في باريس قرب الأوبرا ، وأخرى في لندن ، وثالثة في ماربيلا ، لكنه آثر المجيء إلى البلدة التي أحبها وعمل فيها أحلى وأغلى سنوات عمره ..

- والله زمن .. زمن لا يعوض !

قال إنه يسره لقائي .

بدا صوته وحضوره من زمن سحيق ، مسا من الحيرة والتيه فيه ، خاصة عندما كرر الاستفسار عن نزيه حكيم ، كررت ما قلته إنني باذل جهدي

لاستقصاء أخباره ، وإبلاغه الرسالة إذا أمكنني .

نزيه حكيم ؟؟ ، تقاعد منذ سنوات ، بالضبط قبل أن أتولى رئاسة المؤسسة بعامين إلا بضعة شهور .

كان طويلاً ، نحيلاً ، ممتد العنق ، بارز الحنجرة ، نافر العروق ، لم يبدل نظارته الطبية منذ سنوات ، الإطار المعدني النحيل ، العوينات المستديرة ، لم أره إلا مرتدياً حلة كاملة ورباط عنق ، حتى في ذروة القيظ ، يوليو وأغسطس .

كان مسئولاً عن العلاقات العامة . عضوا قديماً بحزب مصر الفتاة ، بعد الثورة أصبح عضواً في هيئة التحرير ، ثم الاتحاد القومي ، وبعده الاتحاد الاشتراكي ، ثم حزب مصر وانتهى إلى الوطني الديمقراطي ..

الحق أنه لم يكن انتهازياً ، ولم يعرف عنه الابتذال ، أو إظهار النفاق ولم يكن خرب الذمة . كان يردد أن السياسة في دمه ، وممارستها تعني خدمة الناس من خلال الحزب الحاكم ، أما المعارضة فجنون ، وعندمايسأله أحدهم عن مرحلة انتمائه إلى مصر الفتاة ، يقول على الفور : طيش شباب !

نزيه حكيم المتحدث الأول في الاجتماعات ، المنظم الماهر للاحتفالات ، وأمهر من يصيغ البرقيات ، منسق خروج العمال والموظفين عند تنظيم موكب استقبالي لأي عظيم قادم كثيراً ما يتعقب الذين يحاولون الاختفاء ، يؤكد أنه يدون أسماءهم لكنه لا يشي بأصحابها إلى الأجهزة الأمنية وأفرادها المندسين.

كثيراً ما جاءني وقعد عندي ، وخاض في أمور عامة . أو شئون تخص بعض العاملين ، يتحدث متمهلاً ، ينطق بلهجة تدنو من الفصحى ، يتّكِّى على مخارج الألفاظ . يصمت أحياناً ولكن تستمر ابتسامته الجانبية المعلقة على حافتي شفتيه ، بعد نظرة مسدلة يقول إنه كان بالأمس مع شخصية هامة - لا داعي لذكر اسمها - وإنه قال ..

يخفض صوته ، يؤكد أنه اطلع أثناء زيارة خاصة على تقرير مرفوع إلى

جهة حساسة ، ثم يتوقف ليتأكد ، ليستوثق من محدثه أن كلمة واحدة مما يفضي به لن تخرج بره !

يسني مرح إذ أستعيد مشيه الوئيد ، دخوله المتمهل ، يده الممدودة باستقامة عند المصافحة مع تراجع نصفه الأعلى إلى الوراء مما يعني حرصه على الاحتفاظ بمسافة فاصلة .

ما ينقله من أخبار لا يتطرق إليه الشك ، علاقاته عديدة ومتنوعة وغريبة، أكد لي منذ سنوات أن وزير الصناعة الدولية لن يستمر في التغيير الوزاري المحتمل ، لم أبد اهتماماً لكن عندما وقع التغيير تذكرت يقينه وإصراره سألته فتمنع ، ورفع يده مراراً لكن إزاء تثاقلي عليه أبدى ليناً ، رجاني ألا أفشي لأنه ربما تسبب في قطع رزق من لا ذنب له .

قال إنه يعرف حمالاً بمطار القاهرة . ينقل الحقائب من وإلى الطائرات ، موثوق به ، لذلك يتم اختياره مع ثلاثة أو أربعة آخرين لتحميل الطائرة الرئاسية ، في ذلك اليوم ، بعد وضع الحقائب في المخزن ، جاء ضابط شاب يرتدي ملابس مدنية بتعليمات مفاجئة لإنزال حقيبة الوزير ، بدا صارماً ، وعنده قسوة ، مما أكد للعامل الذكي ، النبيه ، أن نجم الوزير بدأ يأفل ، وهذا ما كان .

نزيه حكيم لم يتبسط مع أحد ، لم يقترض أيضاً ، حرص على تسديد حساب مشروباته اليومية أولاً بأول ، صحيح أنه يدقق طويلاً ، وينقر المكتب بأصابعه محاولاً أن يتذكر ، متسائلاً أحياناً : متى جاءه كوب الشاي ؟ ، مَن الضيف الذي شرب فنجان القهوة المضبوط ؟ أحياناً يجري الجمع أكثر من مرة، مع أن إجمالي المبلغ كله لا يتجاوز الخمسين قرشاً ، لكنه لم يرجئ تسديد ما عليه قط ، كذلك لم تنل منه الإشاعات ، إذ يشرف على تنظيم حفلة يلف على محلات الحلوى ، من مصر الجديدة إلى الجيزة ، ومن امبابة إلى الأزهر ، يقارن الأسعار ، يدقق النوعيات ، ويتأكد من جودة الشاي ، وامتلاء

الأكواب، أما باعة الزهور فكثيراً ما ضجوا منه إذ يحرص على عد الأزهار والأوراق المدلاة من الأغصان ، ويؤشر علامات صغيرة لا تلحظ هنا وهناك خشية أي تبديل يلحق الباقة أثناء إرسالها إلى الفرح أو المستشفى أو منزل ما ، إذ توافي المنية أحد العاملين يسرع للقيام بكافة الإجراءات اللازمة ، من استخراج تصاريح ، أو اتفاق مع الحانوتية ، كان يتشدد معهم إلى حد العراك في بعض الأحيان ، ومرة هدد أحد الحانوتية بعدم شيل الجثة وتركها بدون تجهيز ، ليس من المعقول حسابه بهذه الطريقة المتعسفة . بمجرد أن سمع نزيه حكيم تهديد الحانوتي ، حتى تطلع إليه جامد الملامح ، عيناه تطقان بنظرة غريبة ، الجميع لزموا الصمت ، وتساءل بصوت بارد عن أقرب جهاز للهاتف ، ثم أعلن أنه لن يكون رجلاً ابن رجل إذا لم تسحب رخصة هذا الحانوتي الكافر في نفس اليوم ، ويبدو أن التهديد كان حاسماً ، واضحاً ، أقبل الرجل معتذراً، مبدياً أسفه ، وعندما لم تلح أي بادرة تراجع .

أعلن الحانوتي أنه مستعد لتقبيل رأسه اعتذاراً ، غير أن نزيه حكيم لم يصفح إلا بعد رجاء دامع من أم المتوفى وكانت امرأة تجاوزت التسعين .

قامته نحيلة ، صلبة . أشار بإصبعه ، كدت أنسى ملامحه ، غام عندي لولا إلحاح صاحبنا ، اتصل بي للمرة الثالثة ..

– أزعجك ؟

– أبداً .. تفضل

– قابلت نزيه ؟

– لا ..

– نسيت ؟

– لا .. لكنه محال الآن إلى التقاعد ولا يأتي إلا على فترات متباعدة ..

بعد صمت لحظات . سألني ..

– ماذا تعمل الآن ؟

قلت باختصار :

- استريح ..

- تمنيت لو قبلت دعوتي ..

- أين ؟

- فنجان شاي على النيل ..

- فرصة أخرى ..

- بالله عليك لا تنسى نزيه حكيم ..

إجابتي صادة ، غير مشجعة على الاستمرار ، كنت مرهقاً ، ساعياً إلى إغفاءة قصيرة حتى ، إلحاحه هذا أثار عندي مرة أخرى استفسارات شتى ، غير أن ملامح نزيه حكيم قويت عندي طغت على ما عداه ، راح وجاء وانحنى وأشار بإصبعه وتطلع بنظرته الجانبية المصحوبة بإضمامة شفتيه . وإيحاء بعلمه الكثير من التفاصيل لكنه لا يستطيع أن يفضي .

أغمضت عيني فإذا بحضوره أقوى ، بل كدت أميز إيقاع صوته ، وهذا ما وعر عليَّ عندما حاولت استعادة ملامح صوت والديّ ، أمي وأبي ، كيف أستعيده بهذا الوضوح مع أني لم أجتمع به إلا نادراً ، وبعد ابتعادي عن المؤسسة تسع سنوات كاملة لم ألقه خلالها مرة واحدة ، ولا صدفة حتى !

فسرت عدم سعيه نحوي بحرصه الشديد والتزامه السياسي ، إذ اعتبرت من غير المرغوب فيهم خلال تلك الفترة ، آثرت خلالها الابتعاد . استكنت إلى الظل متمنياً ألا يرد ذكري عندهم حتى وقع تبدل في الأحوال ، تقرر اعتباري مستشاراً فنياً للمؤسسة ، توقعت أن أراه ، فوجئت به يتصل بي ، كان يتكلم من الكويت . هنأني بالعودة ، وسألني عما إذا كانت الأمور تمضي على ما يرام ؟ ، استفسرت .. في أي مجال بالضبط ؟ ، قال إنه يطمئن على إعداد المكتب بشكل لائق ، استفسر عن لون الستائر والأثاث ، تكلم بعد ذلك سبع مرات ليتأكد من جودة السجادة وليذكرني أنه من حقي جهاز تليفزيون ،

وآلة تصوير مستندات ، أكد أنه لو كان إلى جواري لتم شيء بشكل مختلف . ولكن تركيب جهاز التكييف سيتم على يديه ، في الصيف القادم سيجيء إلى مصر نهائياً ..

انقطع ، لم أسمع صوته طوال الشهور التالية ، حتى بعد صدور القرار النهائي باعتباري رئيساً للمؤسسة ، لم أتلق منه برقية تهنئة ، إلى أن جاء في صباح يوم ، دهشت من مثوله المفاجئ ، مؤكد أنه ازداد طولاً ، وكنت أظن أن طول المرء يتوقف عند عمر بعينه ، لم يتخل عن الحلة الكاملة ، ورباط العنق، والهيئة الكاملة !

قال إنه عاد نهائياً ، سافر بهدف معين ، ادخار مبلغ معين للأولاد ، عندما اكتمل في البنك ، بالضبط كما حدد ، بالجنيه والقرش ، تقدم بطلب لإنهاء خدمته ، تمسكوا به وعرضوا عليه امتيازات جديدة لكنه أبى .

زم شفتيه بحدة ، بدا مشمئزاً ..

- يكفي ذلك .. تكفي هذه الغربة ..

بعد أسبوعين فوجئت بطلب مقدم منه لتسوية أوضاعه ، لم يتبق على بلوغه سن المعاش إلا عامين ، يحق له الآن راتب تقاعدي كامل ، جاءني ، أنه في حاجة إلى الراحة ، الأهم .. أنه تقاعد سياسياً ، لم يعد يقوم بأي نشاط . بعد عودته عرضوا عليه إدارة مركز جديد للشباب افتتح مؤخراً لشغل أوقات الفراغ ، خاصة بعد تزايد نشاط الجماعات المتطرفة . قال مؤكداً إنه نأى تماماً عن أي نشاط .

لكن المركز رياضي ؟

صحيح .. لكن هدفه سياسي !

بدا حريصاً ، دقيقاً في اختيار ألفاظه ، وعدم الحيدة عن التعبيرات الشائعة ، المتداولة في الصحف ، خاصة في الأعمدة اليومية والمقالات الافتتاحية .

قَضَّ نومي . تنتابني ليال متتابعة ، أكابد فيها الأرق ، بدون سبب محدد ، أو ظرف معين ، عند إغفائي لفترات قصيرة ، كنت أستيقظ وعندي أثر من نزيه حكيم ، بالتأكيد رأيته في حلم ما ، على أي هيئة ؟ أي موقف ، صعب عليّ التحديد .. حوالي العاشرة اتصل بي صاحبنا

- متى ستراه إذن ؟
- لا أعرف
- ألا يمكن تكليف أحد بإبلاغه ؟
- سأحاول ..

رغبت في إنهاء الحوار ، إيقاع صوتي يوحي بذلك ، لكنه استمر ..

- وأنت .. ماذا تفعل الآن ؟
- عندي شغل
- ما من فرصة لأراك ..
- اليوم صعب
- متى إذن ؟
- غداً .. الحادية عشرة والربع ..

الحادية عشرة إلا الربع أخبرني السكرتير أنه في الطريق إلى المكتب ، قلت إن موعده بعد نصف ساعة ، يجب أن ينتظر ، أنني مشغول ، مشغول جداً ، الحق أنه لم يكن لديّ ما أعمله ، مجرد ترتيب أوراق قديمة ، غير أنني آثرت دخوله في الموعد المحدد ، لماذا استجبت له ؟

ماذا سأقول وماذا سيناقش معي ؟ كنت أحاول إقصاء ملامحه عن ذهني ، أجتهد لتبينها غير أن نزيه حكيم يطالعني بدلاً منه ، مرة جالساً ومرة واقفاً، متحدثاً ، صامتاً ، ملوحاً بإصبعه ، أو .. ملتزماً صمت من يعلم الكثير ويحرص على عدم الإفضاء .

نصف ساعة ثقيلة ، بطيئة ، حتى أنني أوشكت على السماح له بالدخول ،

خاصة مع إلحاح صورة نزيه حكيم وشدة حضوره حتى خيل إليَّ أنه يقف خلفي مباشرة . وأن أنفاسه الحذرة الوقورة التي ترددت منذ سنوات تكاد تلمس عنقي !

رائحة عطر قوية تتقدم صاحبنا ، حلة أنيقة ، منديل أحمر يطل من جيب جاكتته العلوية ، دبوس ماسي يتوسط رباط العنق . صعب ، شاق الربط بين الملامح التي أراها وتلك التي أذكرها . تحت عينيه انتفاخان ، نظراتهما زائغة، غير مستقرة ، مقبض عصاه عاجي مذهب ، في خطوه ، في طريقة جلوسه شيء ما يوحي بعجزه الجنسي !

– قهوة سادة ..

سأل عن الظروف ، عن العملية الجراحية

– من أين عرفت ؟؟

يتراجع مبتسماً

– مصادري طبعاً ..

تطلع فجأة إلى الهاتف ، أشار إليه ..

– ممكن ؟

– طبعاً ..

لأنفاسه صرير ، أدار القرص مرات ، بدا على وشك الانهيار ، متهدماً ، آيلاً للسقوط ، يتثاءب . بعد توقفه عن محاولة الاتصال ، تطلع عبر النافذة، بدرجة ما .. هل يشبه نزيه حكيم ؟

يعود إلى المقعد متمهلاً ..

– طول عمرك تقرأ ..

– عادة لم أنقطع عنها ..

– أي كتب هذه ؟

– تفضل ..

يهز رأسه ، قلب الصفحات ..

- هل يمكن استعارة هذا ؟

تطلع إلى العنوان ، دليل للشركات الجديدة ، ابتسمت مبدياً الحرج ..

- أحتاج إليه .. آسف ..

يبدو حزيناً ، بعد لحظات يرفع عينيه ..

- في أي يوم نحن ؟

- الاثنين

- كم ؟

- الحادي عشر ..

يفتح باب المكتب ، يقف مدير شئون العاملين متطلعاً ، منتظراً ، ممسكاً ملفاً رمادياً ، تطل منه حواف أوراق شتى ، يومئ مجيباً ، متسائلاً في الوقت نفسه ..

- سيادتك طلبت ملف نزيه حكيم ؟

يتطلع ضيفي متهدل الملامح ، عنده أطيافُ ترقُّب وخوف ما .

أبريل ١٩٩١

هل أخطأت ؟

فلأحاول مرة أخرى

بجهاز الهاتف مفاتيح عديدة ، أحدها يحتفظ بالرقم الأخير ، فقط .. ضغطة إصبع ، رحت أتطلع منتظراً انتهاء التكتكات الخفيفة ، مرة أخرى جاءني في صوتها المتمهل ، البطيء ، المتعب الجامد إلى حد ما : صوتها الصادر من المسكن ، من البيت ، من الشقة التي أحتفظ بكافة مفاتيحها معي .

لم تنتظر إبدائي للدهشة والغضب ، إنما راحت تواصل حديثاً بدأته منذ فترة لا أدري مقدارها ، عن معارفها في الأجهزة التنفيذية والقيادات الشعبية، بل .. والسياسية ، من خلالهم يمكن حل العديد من المشاكل ، إن كلمتها عندهم مصدقة تماماً ، يستجيبون لها على الفور .

في لحظة خيل إليّ أنني أصغي إلى شريط مسجل ، ثمة صدى يشبه هذا الفراغ غير المحسوس المنبعث من الأصوات المسجلة ، في لحظة كدت أنسى أنه صادر من مسكن شقيقتي ، من الهاتف المستقر فوق المكتب المواجه للنافذة العريضة ، عندما تيقنت وأتاني خوف مفاجئ .

أمر غريب . غير متوقع .

الثانية عشرة والربع الآن .

أحتاج إلى ساعة حتى أصل لأقف على حقيقة الوضع ، وضعت سماعة الهاتف منهياً المكالمة من جانبي ، رحت أتخيل الشقة البعيدة ، المغلقة ، غرف ثلاث ، صالة فسيحة . خاوية إلا من بعض الصحف القديمة التي لم تتخلص شقيقتي منها قبل سفرها مع زوجها . عندما أفتح الباب تفاجئني رائحة الأماكن المغلقة ، أكاد من ثقلها أرى قوامها في الفراغ ، أسرع بالدخول ،

أعيد مفاتيح الكهرباء إلى موضعها ، أفتح النوافذ المتقابلة ينفذ الهواء ، لا أدري هل تبدد الرائحة أو أنني أعتادها فلا أشمها ، لكنني في كل الأحوال لا أرغب استنشاقها .

متى سمعت صوتها أول مرة ؟

لا يمكنني التحديد ، ربما جرى ذلك أثناء زيارتي الأولى أو الثانية ، كنت أعمل على ما أوصتني أختي به . فتح النوافذ ، خاصة الشرفة ، أدير المذياع بصوت مرتفع ، إيحاء لآخرين مجهولين أن الحياة لم تنقطع . وأن ثمة وجوداً قائماً . أن البيت عليه رجل . رغم أنه لا يحوي إلا قطعاً قليلة من الأثاث ، ما يحويه المطبخ عدا الثلاجة التي باعتها والغسالة الكهربائية قديمة الطراز ، ومذياع صغير .

يخشى زوجها اقتحام اللصوص ، أوصاني ألا أنقطع ، أن أتردد بانتظام في خطاباتهما سطور توصي بالذهاب ، بالتأكد من إغلاق مفاتيح الغاز والكهرباء عند الإنصراف ، وصنابير المياه ، أن أوصي البواب وأن أكرمه .

ربما أثناء زيارتي الثانية رن جرس الهاتف ، تطلعت إليه ، من يعرف بوجودي ؟ ربما أحد أصدقاء زوج أختي ، أو إحدى صديقاتها . استفساراً أو جهلاً بسفرهما ، رفعت السماعة ، فوجئت بصوتها ..

- أهلاً وسهلاً ..

لن أنسى أول مرة ، إيقاعه المتمهل ، دلال الأنثى التي بلغت من العمر عتياً ، قالت في البداية إنها جارة قريبة ، تسكن نفس الشارع ، ضحكت ، عمرها سبعة وستون عاماً ..

- يعني مثل والدتك ..

قلت مجاملاً ، ودهشة عندي لا تخفى :

الله يعطيك العمر ..

قالت إنها عجوز ، لكنها نشيطة جداً ، لها ماض طويل في خدمة المجتمع والنشاط السياسي . إنها راغبة في التعرف ، ومناقشة أمور الحي ، تود وضع

خبرتها في خدمة البيئة التي تعيش فيها ، لذلك بدأت بمن تتوسم فيهم الوعي..

حتى ذلك الحد كنت واثقاً أنها تقصد زوج شقيقتي ، لا يعرف أحد بترددي هنا إلا البواب ، لا تربطني علاقة بأي من سكان الناحية البعيدة عن مقر عملي ومنطقة سكني .

إنها عجوز ، لابد أنها تعاني فراغاً ، وربما لديها مشروعات شتى ، ولأنني لست مقيماً ، ولا أعرف شيئاً عن مشاكل الضاحية ، ولانني لم ألتق بها ، ولم أعرفها ، لم أشأ أن أوضح لها هذا كله ، لم أهتم . إجاباتي مختصرة تعكس رغبتي في إنهاء الحوار ، لم أفكر كثيراً في دوافعها . ما قالته ، وإن توقفت عند ضحكتها الأخيرة ، فيها سخرية ، وقاحة ما !

في الأسبوع التالي ، بمجرد انتهائي من فتح الباب بدأ رنين الهاتف ، أسرعت ، لم ألتقط أنفاسي بعد من صعود السلم .

- أهلاً وسهلاً ..

- أهلاً ..

قلتها باقتضاب مريب ، قالت إنها تأمل في عدم إزعاجي ، لكنها تسعى دائماً إلى الناس الطيبين ، الذين يمكنهم العطاء ، قلت إنني أستأذن لمدة دقيقة، كنت راغباً في فتح النوافذ ، تجديد الهواء العفن ، الراكد ، بدون التصريح لها أنني وصلت للتو ، وأن هناك ما يجب أن أفعله بمجرد دخولي ، لكنها استمرت وكأنها لم تصغ ، قالت إن الضاحية ظلت لسنوات هادئة جداً ، بيوتها فسيحة تحيطها الحدائق ، والشوارع تحفها الأشجار ، كانت هناك فنادق مريحة فسيحة يقصدها الأثرياء ، ليس من مصر فقط ، ولكن البلاد الأوروبية، أشهرها الفندق المطل على الشارع المؤدي إلى الحديقة اليابانية حوت حديقة أشجار نادرة بعضها من الصين ، ونباتات أحضرها أصحابه من البرازيل واستراليا ، رعوها وتعهدوها حتى نمت وأينعت ، كان المبنى مغطى تماماً بالنباتات الخضراء والزهور ، ومساء كل أحد تعزف إحدى الفرق

الموسيقية الموسيقى الكلاسيكية ، وبعد العشاء تبدأ الموسيقى الراقصة .. تنهدت . قالت إنه الزمن الرائق ، الجميل ، لكنها لا تريد أن تصدع رأسي بمثل هذه التفاصيل التي لا يعرفها إلا المعمرون هنا ، ها .. العجائز مثلها ، للأسف فسد كل شيء بعد أن قامت الثورة ، بنوا المصانع ، وجاء العمال والتلوث والزحام .. قالت إنها تنظف زجاج المناضد والمكتب وإطارات الصور ، تمسحه جيداً لا تطيق أي ذرات غبار في المكان الذي تعيش فيه ، لكن ماذا تفعل إزاء غبار الأسمنت المتساقط من السماء ، بعد دقائق ، دقائق فقط تفاجأ بالغبار يغطي الزجاج من جديد ، حتى ليمكنها أن تكتب اسمها بوضوح خلال ذرات الأسمنت

- تصور ..

قلت إن هذا ضار لكن ..

قالت مقاطعة إنها ترجو ألا تكون قد أزعجتني ، لكنها على أية حال تتجاوز عمر أمي . مرة أخرى سمعت ضحكتها المختصرة ، المستهزئة ، قالت إنها ستدخل إلى الموضوع مباشرة ، بحكم تجربتها الطويلة في العمل السياسي تريد بدء مشروع يتبناه الرجال والنساء الذين يعرفون تماماً مواجع مجتمعاتهم. ستكون مسرورة إذا قبلت دعوتها .. قلت إن ذلك يسرني أيضاً

قالت إنها تتطلع إلى لقائي ، إنها تدعوني إلى تناول الشاي مع عدد من الواعين بالموقف . قبل نطقي بالرد انتهت المكالمة فجأة ، ولم أدر .. هل انقطع الخط أم أنها صمتت بغتة ، حملقت إلى الهاتف الذي لم يصدر عنه صوت خلال المدة التي أمضيتها . الأربعاء من كل أسبوع يوم حضوري ، ظروف عملي تتيح لي فراغاً هذا اليوم ، كنت أسعى ليس بدافع الاطمئنان ، إنما رغبة مني في الانفراد ، بعيداً عن زحام العمل ومشاكل العائلة ، وثرثرة الأصدقاء لاحظت أن ميلي إلى الانفراد ، ورغبتي في النأي عن الخلق تزايدت في السنوات الأخيرة ، لكن هذه السيدة بدأت تؤرقني . كان الهاتف يبدأ الرنين أثناء صعودي السلم أو عند مجرد دخولي أو بعد انقضاء دقيقتين أو ثلاث .

تبدأ اعتذارها ، ثم تقول عن خبرتها الطويلة في العمل السياسي عن جمال وهدوء الضاحية في الماضي قبل بناء المصانع ، وظهور العمل ، وتشويه الضاحية ..

- تصور أن المدينة السكنية التي أقاموها في نهاية الشارع ، يعلنون ليلاً ونهاراً في التليفزيون أنها تضم ستة آلاف شقة بنيت كلها فوق مساحة كان يشغلها بيت الشيخ المراغي شيخ الأزهر .. كان بيتاً جميلاً تحيطه حديقة أجمل من حديقة الفندق .. مكانهاالآن ستة آلاف شقة .. أعوذ بالله ..

كدت أوقن أنها تعرف مواعيد وصولي ، ربما ترقبني بشكل ما يوم الأربعاء ، قررت تغيير الوقت بدأت التردد يوم الجمعة بدلاً من الأربعاء أمضيت ساعة أصغي فيها إلى أصوات الحياة اليومية القادمة من الطريق ، أبواق عربات ، صيحات أطفال صغار ، ضجيج متشابك الملامح ، كنت أطيل النظر إلى ملامح الحياة التي كانت تفيض قبل سفر شقيقتي ، لم أبدل موضع شيء ، ملابس متناثرة ، لعب ابنة أختي ، منظار مكبر يخص زوجها ، مجموعات من الصور ، كأنهم خرجوا على عجل لغيبة قصيرة تقدر بساعات وليس بشهور ، بعد إغلاقي النوافذ ومفاتيح الكهرباء والغاز وصنابير المياه ، قبل مغادرتي مباشرة أثناء اتجاهي إلى الباب الرئيسي رن الجرس ، أبديت خشونة في الرد لكنها لم تعبأ ، تحدثت مباشرة عن مشروعاتها التي قدمتها إلى القيادة السياسية ، إعادة تشجير الشوارع ، تخصيص لتر لبن لكل تلميذ في المرحلة الابتدائية ، تعميم ارتداء القفازات في الشتاء حرصاً على الأيادي العاملة في المستقبل ، مراقبة الباعة الجائلين خاصة باعة حمص الشام وغزل البنات . تأففت وضجرت ، لكنني لم أرغب إخبارها بانصرافي حتى لا أفصح عن بقاء الشقة خالية ، تحملت حتى انتهت فجأة .

بدلت مواعيدي ، لم أعد أخصص يوماً معيناً ، لكنها لم تدعني أفلت ، بل لاحظت أن ثمة توافقاً بين رنين الهاتف والأيام . في السبت تطلبني بمجرد عبور الباب ، الاثنين بعد إغلاقي النوافذ ، الخميس قبل انصرافي بربع

الساعة، الأحد بعد تشغيل شفاط الحمام ، لكم سألت نفسي ، لماذا لا ألزم الصمت ؟ لماذا أسارع بالرد ؟ ربما لأنني كنت راغباً في الوقوف على ما ورائها ، لم تكن تعبأ برقتي أو خشونتي ، أحياناً تجيب عن أسئلة حادة ، وأحياناً تمضي في الحديث لا مبالية ، عن المواصلات حفر الطرقات ، العناية بتجارة الكتب القديمة ، تنظيم حملات لجمع الملابس القديمة وتوزيعها على المحتاجين . الأدوية ، المبيدات الحشرية ، ثم تبدي قلقها على انتشار الفئران وقلة المعروض من مصايدها والسموم المقاومة لها .

لم أستطع إيقافها ، أو تغيير مجرى الكلام ، لم تجبني عندما سألتها عن عنوانها ، ولا مكان الاجتماع الذي تقترحه للقاء وجهاء الضاحية ، بل إن نبراتها لا تتغير ، كن أستعيدها أثناء عبوري الطرقات ، في عملي ، في أمسياتنا الهادئة بعد هجوع الأولاد ، أثناء مشاهدتي لفيلم أفضله في التليفزيون ، أثناء شربي كوب شاي عند صديق ، بغتة بلا مقدمات تواتيني حتى أكاد أسمعها وكأنها بجوار أذني ، لكن .. ما الذي جعلني أدير قرص الهاتف ، رقم شقيقتي مع علمي بخلو المسكن ، ويقيني من انعدام الرد ؟

لم أستطع أن أجد تبريراً ، وكان غموض الدافع أشد حيرة من سماعي صوتها ، يجيبني عبر هاتف شقيقتي ، مما بعث عندي خوفاً غريباً ، هل أخطأت في الرقم ؟

هل حدث ارتباك ما في الخطوط دفعني إليها .

على مهل رحت أدير الأرقام ، ناطقاً كلاً منها بصوت مرتفع ، دق قلبي بسرعة بينما صوتها يتردد بنفس النبرات ، مستأنفة حديثاً لا أدري متى بدأ ، ولا متى ينتهي .

– الصورة واضحة جداً عند القيادة السياسية .

أوضح مما تتصور .

١٩٩٢

لحظة إزاحة الستارة عن نافذة مكتبي العريضة رن جرس الهاتف ، لم يمض على دخولي دقيقة . من يعرف بوصولي اليوم مبكراً ؟

عادة أجيء بعد العاشرة ، لم تتجاوز الساعة الثامنة الآن .

أخشى تلك المكالمات المبكرة ، أو المتأخرة ليلاً . أخاف وقوع أمر مفاجئ ، تماماً كوصول برقية عاجلة ، في طفولتي ، كان اقتراب ساعي البريد من أحد بيوت القرية ملوحاً بورق التلغراف ، يثير الحذر والخوف من المجهول المباغت .

عندما رفعت السماعة قال اسمه على الفور ، لم يستفسر ، إنما خاطبني مباشرة كأنه خبير بصوتي مع إنني أسمعه للمرة الأولى ، المكالمة خارجية ، هذه الأصداء الغامضة المصاحبة للصوت . بعضها صادر عن أجهزة الإرسال والاستقبال ، والأقمار الصناعية والآخر غامض المصدر .

صوته هادئ ، ممسوخ الملامح ، مسطح النبرة ، خال من أي انفعال ، واثق، لا يمكن نسبته إلى مرحلة معينة من العمر .

قال إنه مصري مقيم في المدينة التي أصِلُها غداً ، إنه يريد ترتيب موعد للقاء رئيس قسم الاجتماع بالجامعة الحرة .

قلت إن ذلك مما يسرني ، لكنني مرتبط ببرنامج دقيق ، لابد من اتصاله بالجهة الداعية .

لم تتغير نبرة صوته ، قال إن العلاقات ليست على ما يرام بين الجامعتين ، لكن عدد الطلاب في الجامعة الحرة أكثر ، يريدون مناقشتي .

كررت اعتذاري ، لابد من الاتصال بمنسق الزيارة ومنظمها ، قال إنه لن يصر الآن ، لكنه سيبذل محاولة .

كأن ابتسامة ساخرة تصاحب نطقه ، لسبب ما وثقت أنه يتحدث من داخل مقصورة معدنية ، لماذا ؟ لا أدري ..

رحت أستعيد إيقاع كلماته ، لهجته . ثمة شيء لا يمكنني تحديده أثار قلقي . طوال اليوم شغلت بإجراءات شتى ، رغم ضآلتها تسبب ارتباكاً لي . خطابات تقتضي توقيعي ، توصيات لابد من الإفضاء بها إلى من سيقوم بعملي أثناء غيابي . في الثالثة فارقت مبنى المؤسسة ، صافحني حارس الأمن طيب الملامح بحرارة ، تمنى لي السلامة ، كنت أبتعد عن عينيه اللتين تفيضان طيبة ودعة ، لسبب ما تذكرت محدثي عبر الهاتف ، التفت فجأة ، كأنه يرقبني من مكان ما ، مع أن المسافة الفاصلة شاسعة .

في المساء ما بين يقظتي ونومي ، أكدت لنفسي أنه ما من داع للشغل بمثل هذه الأمور حتى لا أزيد من عوامل توتري وقلقي التي تنشط قبل سفري، خاصة أنني سأستيقظ مبكراً ، تقلع الطائرة في الثامنة تماماً ، لابد من التواجد قبل ساعتين ، يعني هذا استيقاظي في الرابعة والنصف ، مغادرة البيت في الخامسة أقيم في ضاحية حلوان البعيدة ، أقصى جنوب المدينة ..

***

تعرفت بسهولة على السيدة المكلفة باستقبالي ، كانت تبتسم بتحفظ وترتدي معطفاً ثقيلاً ، وتمسك حافظة أوراق ومظروفين ، تطلعت إلى المنتظرين، ليس بينهم أي شخص ذو ملامح عربية ، لكنني كنت واثقاً أنه يقف في مكان ما يرقبني ، إنه يدركني ولا أدركه .

تزايد يقيني لحظة دخولي حجرتي المطلة على النهر ، إذ رن جرس الهاتف ، من ؟ إنني لم أضع حقيبتي بعد ، ربما يريد موظفو الاستقبال تنبيهي إلى شيء ما ، في الطريق قالت السيدة إنهم قاموا بالتأمين عليّ طوال إقامتي المحددة وقدرها أسبوع من الضروري الالتزام بالنوم في الفنادق المحددة ، واستخدام وسائل المواصلات الموضحة في البرنامج المطبوع . يعني لو دعاني صاحب لقضاء ليلة عنده ، يعد ذلك خللاً بشروط التأمين ، وإذا جرى حادث ما لن تكون هناك أي مسئولية ، أوصتني الالتزام بمواعيد القطارات ، وأرقام المقاعد

المحجوزة مقدماً ، فإذا تضمن البرنامج موعداً لتحرك القطار في العاشرة وثلاث دقائق ، وركوب العربة الثالثة ، فلابد من الالتزام ، حتى لو كان الجلوس في عربة أخرى مغرياً .

إصرارها على تكرار هذه التعليمات دفعني إلى الاستفسار عن حتمية هذا التأمين .

– هل ثمة أخطار معينة ؟

هزت رأسها نفياً ، قالت إن بلادها من أكثر بلاد العالم أمناً في العالم ، السلام مستقر تماماً ، بدا صوتها رسمياً ، ذو نبرة تتشابه وهي تذكر أرقاماً عن الإحصاءات الرسمية المعلنة في مارس الماضي ، تثبت أن حوادث القتل والاغتصاب والنشل والاغتيال أقل من العام الماضي .

قالت إن ما تقوله إجراء عادي مع كل ضيف ، وأن نص الاتفاق بين شركة التأمين والجامعة يقتضي ضرورة التذكير والتنبيه حتى انتهاء الزيارة ، أما التأمين فيسري حتى دخول باب الطائرة ، أي أنه لو وقع حادث ما في الممر المؤدي إليها فالشركة تتحمل المسئولية .

قالت إن نظام التأمين هنا من أدق النظم في العالم ، كل مواطن لديه أنواع مختلفة ، تأمين على الحياة ، على السيارة ، على الأولاد ، على البيت ، على الأثاث ، آخر على النباتات في الحديقة ، على الأجهزة الثمينة ، بالإضافة إلى التأمينات الجزئية ، على العينين مثلاً ، أو الأنف ، أو القصبة الهوائية ، البعض يؤمِّن على أعضائه التناسلية !

رغبت في المزاح لكنني لم أسفر ، تبدو متحفظة ، محايدة . تحرص على مسافة بيني وبينها ، قدرت حرصها على إيجاد مسافة ، إنها تقوم بالواجب ، وربما نبهوها إلى عدم التبسط مع الرجال القادمين من الشرق !

لم تكن هي ، ولا موظفي الاستقبال ، ولا منسق الدعوة ، إنما هو ، تعرفت على صوته فوراً وكأنني أصغيت إليه مرات ، قال إنه يأسف لاضطراره الخروج

اليوم من العاصمة إلى ضاحية قريبة لأمر عاجل ، مفاجئ ، ود انتظاري في المطار للترحيب بي ، ثم تساءل عما إذا كان أحد الشباب ذهب إلى المطار لاستقبالي ؟

- أي شاب ؟

قال بسرعة

- العربي .. المصري ..

أجبته بالنفي ، خطر لي الاستفسار عن المدينة التي ينتمي إليها . متى غادر مصر ؟ الغرض من إقامته ؟ طبيعة عمله وماذا يفعل هنا ؟

كنت مستنفراً .

أوشكت على النطق ، فوجئت به يقول إن النقود المعدنية على نفاذ .. إنه يتكلم من الطريق . يتمنى لي إقامة طيبة . سمعت صفيراً متقطعاً .

قعدت على حافة السرير المرتب ، المنظم ، أضفى صوته حضوراً ، ثقيلاً ، وخشية مبهمة . كيف يطلع على مواعيد وصولي بتلك الدقة ؟ ، هل يتابعني بوسيلة ما ؟ . لماذا بدا صوته قريباً ، كأنه من الغرفة المجاورة ؟

***

.. في العاشرة عدت إلى الفندق ، أنهيت جولة للتعرف على المنطقة القديمة، صحبني خلالها طالب أنهى دراسته للغة العربية تمهيداً لسفره إلى الصحراء ، موظفاً بشركة تبحث عن الغاز الطبيعي ، اسمه مكتوب في البرنامج الذي تسلمته في القاهرة ، لكنني لم أعن بالتأكد منه ، لم يعلق بذهني .

تطلعت إلى الخانة التي يوضع فيها مفتاح الغرفة متوقعاً رؤية ورقة تخطرني برسالة هاتفية ، رغم خلوها تمهلت ، عندي يقين أنه اتصل أثناء غيابي ، يبدو أن وقوفي لفت أنظار موظفة الاستقبال التي سألتني عما إذا كنت في حاجة إلى شيء ما ، أومأت شاكراً ، مضيت إلى المصعد ،

الى غرفتي .

وضعت المفتاح في الثقب حتى يصعب فتح الباب من الخارج ، وإن كنت تماً أن لديهم وسائل شتى لفتح الحجرات ، نقلت المقعد الوحيد . أسندته على قائمين فقط ، إذا فتح الباب يسقط محدثاً صوتاً يكفي لإيقاظي .

قلبت مفتاح المذياع الصغير الذي أحمله معي ، فردت الهوائي متعقباً الموجة القصيرة في أطوالها المختلفة ، المذيع يقرأ خبراً من القاهرة يقول : إن رئيس الوزراء حضر حفل توزيع الجوائز على المتفوقين في النقابة وأوصاهم بضرورة الانتباه واليقظة حتى تظل راية المحاماة مرتفعة خفاقة !

في إذاعة أخرى بدأ المذيع متحمساً ، قال إنه لا بد من التصدي للهجمة الشرسة .

أغلقت المذياع ، مططت شفتي ، إذا كانت هناك هجمة فلابد أن تكون شرسة ، وهل ثمة هجمة لينة ؟ . كلام ، كلام ، كلام ولا غير !

صوت باب يغلق ، رنين جرس بعيد ، تذكرت فندقياً مجرياً ، قابلته في بغداد ، عيناه حائرتان ، دعاني إلى غرفته المؤقتة ، يقيم بها حتى يتم تدبير سكن له في المدينة ، كان متخصصاً في الأغذية والمشروبات ، كتب إلى جوار السرير ، لغات مختلفة ، روايات ، مسرحيات ، مؤلفات في الطبخ ، أخرى عن تمارين الجودو ، مجلات ، صحف ، من كوب خزفي تبرز ثلاثة أقلام رصاص ، نظارة قراءة ذهبية الإطار ، من النوع الذي يمكن طيه وحمله في علبة صغيرة يمكن وضعها في جيب الجاكتة الخارجي .

قال إنه يخطط لافتتاح مشروع في المعادي بعد عودته لبيع الوجبات الجاهزة ، بحيث يمكن لربة البيت الموظفة أن تشتري وجبة تحتوي على ملوخية أو قلقاس ، حتى محشي ورق العنب أو الكرنب .

قال إن بعض النزلاء يديرون قرص الهاتف كيفما اتفق ، سعياً إلى التعرف بالنزيلات ، أيقنت أنه يعني نفسه ، كانت غرفته تفيض بوحدته وعزلته ، ترى

أين هو الآن ؟ هل رجع إلى مصر ؟ أو انتقل إلى بلد آخر ، أو قضى أثناء الحرب ؟ خطوات في الممر .

لا يوجد باب داخلي يعزل الأصوات .

هل توقف أحدهم أمام الغرفة ؟

لا يمكنني التحديد ..

***

في الصباح هاتفني

ما بين اليقظة الآتية والنوم المولي ، أمضيت فترة حتى اعتدت على أصوات المكان ، استيقظت مرتين بتأثير انتصاب قاس اضطرني إلى التردد مرتين على الحمام ، أزحت الستارة قليلاً حتى يوقظني الضوء لكن فاتني أن النهار يتأخر قليلاً في هذه البلاد الشمالية . دماغي مثقل .

جاءني صوته هادئاً ، مماثلاً للمرة الأولى التي أصغيت إليه في القاهرة ، قال إنه يأسف لإزعاجي ، لكنه يشعر بواجب خاص تجاهي ، يحرص على زيارتي للمتحف ، يرجو ألا تفوتني ، اليوم أحد ، وغداً الاثنين سيبدأ البرنامج الشاق ، إنها فرصة لرؤية طريقة عرض الآثار المصرية في الخارج .

تزايدت رغبتي في صده ، بل إهانته بشكل ما ، لكنني كتمت حرصي على إدراك ما يحيط به أقوى ، لم يدع لي فرصة للكلام . إنما قال إنه ينصحني بالمشي قليلاً حول الفندق ، المنطقة جميلة جداً في الصباح الباكر ، لكنها خطيرة جداً في الليل ، خاصة بعد العاشرة مساء ، إنها مركز توزيع المخدرات في المدينة .

قال إنه حريص على استفادتي بكل دقيقة ، والتزامي أيضاً بالبرنامج ، هنا نفر عندي غضب ، كدت أصيح : ماذا تريد بالضبط ؟ لكنني لزمت الصمت ، مصغياً إلى لهجته المصرية ، محاولاً رصد علامة واحدة تدل أو تشير إلى افتعالها أو تمثلها .

في المتحف قال مرافقي إنه لن يستطيع صحبتي غداً صباحاً إلى محطة القطار لأنه يستخدم أقراصاً منومة تجعل استيقاظه قبل التاسعة أمراً صعباً ، إنه يرجو التخلص منها عندما يلتحق بعمله الجديد في الصحراء العربية أما الآن فلا يلتزم بعمل محدد ، إنه يمارس أعمالاً حرة لا تقتضي مواقيت معينة ، لم يفسر طبيعة تلك الأعمال ولم أستفسر .

أثناء تناولنا الغداء معاً جلسنا متواجهين ، من خلال الزجاج تبدو حديقة متدرجة في النزول ، منسقة ، أطفال يلعبون ، بدا هادئاً رصيناً ، متمهلاً . هادئ الألفاظ ، فكرت أن أفضي إليه عن هذا المتحدث المجهول ، اطلاعه على تفاصيل تحركاتي بدقة ، بل يبدو وكأنه يرقبني من مكان خفي ، بحيث يدركني لحظات دخولي الغرفة ، أو قبل خروجي ، أو فراغي من ارتداء ملابسي .

أرجأت ذلك إلى لحظة مناسبة ، كان يتحدث عن أمور لم أحط بها ، ربما لا يدركها الزائر العابر ، نصحني بالحذر ، كراهية الأجانب هنا متزايدة ، أحياناً تقع حوادث عنف ، قال إن البلد يبدو هادئاً ، أنيقاً ، مستوى المعيشة مرتفع ، فلأنظر إلى أزياء الناس ، سياراتهم ، بيوتهم الفسيحة المزودة بأنظمة خاصة لتزويد السكان بالأشعة فوق البنفسجية خلال أيام الشتاء الطويلة التي تغيب فيها الشمس لأسابيع متتالية ، وإذا لاحت فهي بعيدة ، باهتة ، ظل لأصل لا يدرك .

قال إن مستوى المعيشة المرتفع يمكن ملاحظته في المطاعم ، حيث يلتزم الجميع بأصول عريقة . النبيذ الأبيض لا يشرب إلا مع السمك ، كل نوع من لطعام يرافقه نبيذ خاص ، طبعاً الأحمر يخص اللحم أما طريقة الطهو فتحدد نوع المشروب ، إذا كان اللحم مقلياً فليستحسن نبيذ بوردو ، ويفضل محصول لسنوات الثلاث الأولى من الثمانينيات ، وإذا كان مشوياً فالأنسب الأسباني لناتج من كروم الجنوب ، أما الزجاجات المعبأة نبيذ ما قبل الستينيات فلا

يقربها إلا الأثرياء ، إدراك هذه التفاصيل يحدد المستوى الاجتماعي والثقافي.

نبهني إلى طرق الأكل بالشوك والملاعق ، قال إنه يستحسن النظر أولاً إلى ترتيب رصها بجوار أطباق الطعام ، المفروض البدء بالمجاورة للطبق مباشرة الأولى كبيرة للشوربة ، والثانية أقل حجماً للسلاطة ، والشوكة لتناول اللحوم، أما السمك فله سكين خاص ، الأخيرة تكون للجبن .

لوح بإصبعه منبهاً إلى خطورة شرب النبيذ قبل رفع الكؤوس وقرعها ، مثل هذا الخطأ يسبب نظرات قاسية من الآخرين ، تؤدي إلى ازدراء لا يحتمل، المفروض .. أن ينتظر الجميع حتى يرفع صاحب الدعوة كأسه ، يعلن أنه يشرب نخب كذا ، عندئذ يرفع الجميع كؤوسهم ، وبعد تلامس الحواف ، يمكن لكل منهم احتساء جرعة ، ويجوز بعد ذلك الشرب مباشرة بدون انتظار صاحب الدعوة .

تراجع مرافقي إلى الوراء قليلاً ، بدا متزناً ، مستمتعاً بالوقت ، لم أهتم كثيراً عندما قال إن والده جزائري الأصل جاء منذ أربعين سنة في مهمة عابرة، تعرف إلى أمه ، وبقي .. هذا سر عينيه السوداوين ، وشعره الفاحم .

لم أعلق ، إذ التفت ورائي عندما تزايد يقيني أن هناك من يتطلع نحوي ، لكن .. ما من آخر يتطلع ، المناضد مزدحمة ، يبدو أنهم فوج سياحي ، أعمارهم متقاربة ، يفيضون مرحاً ، تلك البهجة الملازمة لنزول بلد جديد ، وقضاء أوقات مرحة خلوا من الهموم .

إنني مثلهم تماماً ، أرى كل شيء لأول مرة ، تستوقفني التفاصيل ، ويلفت نظري ما يعتبر مألوفاً ، صحيح إنني في مهمة ، لكن جزءاً مطولاً من برنامجي ترفيهي ، زيارة متاحف ، حدائق ، ومع ذلك ألزم الصمت ، بل أبدي هماً .

لماذا لا أظهر مرحاً لازمني في رحلاتي السابقة ؟

هل أخبر صاحبي بالمكالمات الغامضة ؟ ، لكنه بدا مهتماً ، حريصاً على توضيح تفاصيل صغيرة ، دقيقة ، وكأنه مكلف ..

***

.. كنت متأهباً ، حريصاً على درء المباغتة . قررت مخاطبته باستهانة ، بدون ألقاب ، كما يتحدث كبار السن إلى من هم أصغر سناً ، بل نويت تعمد السخرية .

لم يرن الهاتف في الغرفة العتيقة التي وصلتها بعد ساعة ونصف من مفارقة المدينة الأولى ، ثاني فندق أنزله ، ينتمي إلى القرن السابع عشر ، جدرانه ، ممراته مغطاة بلوحات تحكي وتشير إلى مواقف يعتز بها أصحابه ، عندما توقف نابليون أمام المبني وطلب كوباً من الماء ، قدمها إليه مدير الفندق وقتئذ على صينية مذهبة ، شرب نصفها وهو جالس داخل عربته المطهمة ، وإلى جواره مساعده الجنرال .

هذا الكوب ، وتلك الصينية داخل صوان خاص ، يمكن الفرجة عليها مقابل رسم معلوم .

صور لضباط كبار أثناء الحرب العالمية الأولى ، مشاهير السينما والمسرح، علماء حاصلون على جائزة نوبل ، فاتورة دفع قيمتها مرافقو إمبراطور النمسا والمجر . ماشربه الرجال ، وقيمة ما قدم إلى الخيول من علف وماء . على الجدار المواجه للفراش إطار يبرز صورة لرسالة كتبها أديب أو أديبة مشهورة على تلك الطاولة منذ مائة عام ، كنت متعجلاً ، ينتظرني رجل تجاوز الخمسين مكلف بمرافقتي ، المفروض أن أضع الحقيبة وأنزل على الفور ، لكنني رحت أتفحص محتويات الحجرة ، أتطلع من النافذة المستطيلة إلى جدار الكاتدرائية الضخمة المواجه .

استدرت مواجهاً الهاتف ، إذن .. أتوقعه ، بمجرد دخولي تطلعت إلى موقعه ، إلى طرازه ، متخيلاً صوت رنينه ، أيشبه الجرس أو الصفير ؟ لكنه

لم يتصل إلا بعد تناولي العشاء . بعد خروجي من الحمام ، بعد تجفيف جسدي ، أثناء تطلعي إلى جسدي العاري في المرآه .. تسارعت دقات قلبي عندما بدأ الرنين المتقطع .

ارتديت سروالي بسرعة ، كأني على ثقة أنه يراني ، لا أرغب عُرْيي أثناء الحديث ، حتى قبل أو بعد مضاجعة أنثى .

جاءني صوته هادئاً رزيناً ، قال أنه يتمنى استمتاعي بوقتي ، قاطعته مبدياً الاستخفاف ، متسائلاً عن سبب اختفائه في العاصمة ، إلم يبد حرصه على مقابلتي ؟ ضحك ، أول مرة أصغي إلى إيقاع ضحكته ، قصيرة ، مختصرة ، قال إنه حدثني عن حساسيات خاصة بالنسبة له ، هذا الخلاف القديم بين أساتذة الجامعتين ، الحكومية والحرة ، لكن هذا يمكن التغلب عليه.. السبب الحقيقي انشغاله في مساعدة صاحب مطعم ، نوبي الأصل ، يمت بصلة قرابة إلى عميد كلية طب قصر العيني الشهير الذي يظهر كثيراً في الصور ويعالج الفنانات ، صاحب المطعم يواجه مشاكل في تجديد الإقامة بعد رفض طلبه الحصول على الجنسية قال إن نزولي في هذا الفندق القديم يعكس اهتماماً خاصاً ، إنه سعيد جداً بذلك ، وسوف يطلع كل المصريين على هذا التقرير .

سألته ، من أي ناحية هو في مصر ؟

قال إنه يجمع بين الوجهين البحري والقبلي ، والده من المنيا ، أمه من المنصورة ، لكنه يعتبر نفسه قاهري النشأة رغم مولده في الصعيد .

أي منطقة .. أين مسكنه ؟

قال إن بيت والده كان أول بناء في منشية البكرى ، عندما كانت الأراضي كلها خضراء مزروعة ، باق حتى الآن ، لكن تسكنه أسرة أخرى بعد بيعه . طبعاً لم يعد وحيداً ..

تساءل

– هل تريد أن تعرف عدد الغرف ؟

سخريته المفاجئة ألزمتني الحذر مرة أخرى ، قال إنه سوف يلتقي بي قريباً ، بمجرد أن تسمح ظروفه .

قلت مقاطعاً

- المهم أن تسمح ظروفي أنا .

رصدت ارتباكاً ما في صمته ، أو هكذا خيل إليّ ، قال إن المشاغل هنا عديدة والظروف مختلفة .

تساءلت بحدة .

- من أنت ؟

ضحكته الموجزة مرة أخرى ، خيل إليّ أن ثمة صدى مصاحب لصوته بدءاً من هذه اللحظة .

قال إنه يدرك سخف ما يقوم به ، عندما يكون الإنسان في الغربة يصبح أكثر حذراً .

هل يلمح إلى حرصي إغلاق الباب ؟ ، إلى إبقاء عيني مفتوحتين أثناء الاستحمام ، خشية اقتحام مفاجئ ، زمان قرأت عن مجهولين باغتوا شخصاً ، قتلوه بوضع آلة حلاقة كهربائية في حوض الاستحمام ، قرأت أم رأيت المشهد في فيلم سينمائي ؟

صمت ..

انتهت المكالمة ؟

- آلو ؟

قال إنه يأسف لهذا الانقطاع ، نسي استئذاني في شرب جرعة ماء ، قال إنه اضطر إلى فتح الزجاجة وصب الماء في كوب يحتفظ به إلى جانبه دائماً ، الجميع يشربون المياه المعدنية في هذه البلاد . مياه الصنابير لا تصلح إلا للاغتسال ، قال إن الزجاجات هنا نوعان ، الأولى عادية ، والثانية غازية ، الأولى أفضل ، أقرب إلى مياه النيل ، الغازية مضرة بالكلى ، خاصة إذا كان

الإنسان يعاني متاعب القولون العصبي ..

قاطعته :

- الله ، الله .. هل عرفت أيضاً إنني أعاني القولون العصبي .. ازداد صوته رسوخاً ، أقسم أن العبارة خرجت منه عفواً ، بالصدفة ، مثل هذه العبارات يرددها أي مرشد سياحي عادي للضيوف ، كما يبثها التليفزيون المحلي أحياناً ..

انتبهت إلى حرصي على إبقاء المكالمة ، بل أتمنى استمرارها ، ربما لأصل إلى حد أتحقق عنده من هويته ، أدرك كنهه ، أفهم ما يريده مني ؟

تثاءب قائلاً إنه ينصحني بزيارة قاعة الضيوف الشرفية في الفندق ، ثمة صور نادرة بينها واحدة للأميرة فائزة عندما جاءت إلى البلاد بعد زواجها من شاه إيران أثناء تمضيتها شهر العسل ، أخرى للملحق الحربي المصري الذي أصبح وزيراً للدفاع فيما بعد ، طلب مني التدقيق في هذه الصورة ، وسينبهني إلى أمور دقيقة جداً بعد سماع ملاحظاتي !

قلت برقة إنني أشكره حقاً على تلك المعلومة القيمة ، يندر أن يلقاها الإنسان في غربته إلا إذا تطوع أحد بني وطنه للإفضاء بها ، لو قابلت مثله في رحلاتي السابقة لعدت بحصيلة أغزر ، لكنني من الناحية العملية لم ألتق به وجهاً لوجه ، لماذا يسمعني صوته فقط ؟

لماذا لا يأتي الآن ؟

حملت صوتي وداً حقيقياً ، راغباً في الاقتراب ، محاولاً الاقتناع بأنه يسدي خدمات إليّ ، بل ألقيت اللوم على ذاتي ، لماذا أفترض سوء الظن به ، إنه يريد بي الأذى ؟ فوجئت بضحكته المختزلة ، الساخرة ، تبدل ودي غضباً لكنني كظمته حتى لا أبدو متناقضاً ، حاولت ألا أغير طبقة صوتي ، أعرف أن الهاتف مرشح جيد للأحوال النفسية ، وأن الصوت الإنساني عبره يلخص ويبرز الدخائل ..

قال بهدوء بارد إنه يعرف تماماً شكي فيه ، بل كراهيتي له ، لكن في النهاية سأدرك خطأ ظنوني كلها ، للأسف لا يمكن الحديث عن كل شيء في الهاتف .

قال إن هذه البلاد تبدو براقة لمن يراها من الخارج ، هذا المجتمع الذي يبدو متحرراً ، ممسوكاً بقبضة حديدية تفوق كل ما عرفته النظم الديكتاتورية ، كل شيء يبدو جذاباً ، لامعاً ، لكن الجوهر مخالفٌ تماماً ..

– لماذا لا نلتقي ونشرح أكثر .. يمكن الآن ، أشعر أنك قريب ..

قال إن لقاءنا يمكن أن يتم في أي وقت ، لماذا العجلة ؟ ما من مشكلة ، نعم .. يمكن أن نلتقي الآن

– هل يمكن هذا ؟

ضحكتان متتابعتان : طبعاً .. كل شيء محتمل ، لِمَ لا ؟

بعد لحظات صمت ، قال إنه لا يريد لحوارنا أن يتحول إلى ألغاز ومعميات لكنه يسألني عن انتظام حركة القطارات ، هل لاحظت دقتها ؟

– نعم .. نعم ..

قال إنه يعرف دهشتي من مجيء طلاب وأساتذة من أقاليم أخرى إلى حفل العشاء وسهرهم حتى ساعة متأخرة ، وعودتهم إلى مدنهم في الليلة نفسها مع أن المسافات قصية ..

قلت إن هذا حقيقي تماماً ، إذن .. لماذا لا نلتقي الآن ؟ ، بعد ساعة ، يمكنني انتظاره إلى ما بعد منتصف الليل ، بل .. إنني أدعوه .

يضحك ، لا أرغب سماعها ، يفاجئني بها كإهانة مباغتة ، قال إن لقاءنا حتمي ، كان ممكناً منذ سنوات طويلة في القاهرة ، لكن يشاء القدر أن يسافر وأن أرحل ليتم هنا ، على أي حال ، لكل شيء ترتيب وسياق .

– ليلة سعيدة ..

فوجئت بانفرادي ، بدون تمهيد أنهى الحديث أصغيت إلى الصمت كاظماً غيظي ، يبدأ عندما يشاء ، وينتهي حين يرغب ، لماذا استسلم له ، لماذا أرضخ ؟ لماذا أتحمل ضحكته الهازئة ؟ لماذا أسارع برفع السماعة عند رنين الجرس ؟

طالعت النهار بعينين مجهدتين ، مرهقتين ، أحقاً غفوت بعض الوقت ؟

أرقت حتى يئست من وسن يدركني ، كيف سأمضي اليوم المثقل بالمقابلات والزيارات واللقاءات التي يجب أن أبدو خلالها بمظهر مخالف لما هو عندي ؟

تناولت افطاري ورأسي مثقل ، شهيتي قاصرة ، شربت كوباً من القهوة ، وقرصين اسبرين ، قلقت لارتعاش أطرافي عند رفع كوب أو فنجان .

لا ..

لن أتحدث إليه كما جرى الليلة الماضية ، يتعمد العبث ، التلاعب بي . أين كان ينتظرني هذا البغيض ؟ البارد ، الغامض ، الساخر ، الشامت ؟ كيف أحاوره ؟ كيف أصغي إليه متودداً ، كيف لم أنتبه إلى خطورة تعقبه ، لماذا لم أفض بنبئه إلى الجهة الداعية ؟

ربما يعمل مع جهة تدير أذى ما .

لكن .. ما من عداوات لي ، مامن خصومات .

من يقصدني ، من يخطط لإيذائي ؟

لابد من وضع حد لهذا التطفل ، وقفه ، بتر تلك المحاولات المريبة ، سأطلب من بدالة الفندق ألا تحول أي مكالمة إلى غرفتي ليلاً مهما كانت الأسباب ، في النهار يزدحم البرنامج بما لا يدع فرصة لإدراكي ، بدت مرافقتي لهذا اليوم مرحة ، حريصة على إبداء الود ، لكنني واجهتها بملامح محايدة ، حتى نية الشروع في ملاطفتها شحبت عندي ، كنت أتمنى الفراغ من هذا كله ، العودة إلى أيامي القاهرية العادية ، رحت أتخيل مراحل عبور المطار هنا وهناك ، ولحظات الإقلاع ، والوصول .

قالت باسمة إن مواعيد الغداء هنا تبدأ في الحادية عشرة ، تعرف إن هذا مخالف لعاداتي ، لكن موعدنا في المؤسسة يبدأ الثانية عشرة ، سوف يستمر حتى الثالثة ، المطاعم كلها تغلق أبوابها في الثانية والنصف .

يبدو المكان مرحاً ، تتدلى المصابيح محاطة بمظلات صغيرة من الورق الملون، المناضد صغيرة المساحة، وعلى الجدران نقود ورقية شتى ، رحت أدقق البصر حتى لمحت جنيهاً مصرياً ودراهم مغربية ، وديناراً أردنياً ، وريالاً عمانياً . لست أول عربي يمر من هنا .

تطلعت إلى قائمة الطعام ، مكتوبة بالألمانية ، لوحت بيدي ..

- يمكنك أن تختاري لي ..

قالت مبتسمة

- هذه مسئولية

- أقبل النتائج ..

كنت على وشك أن أقول شيئاً ما ، عندما رفعت عينيها ، بدت أنيقة الحركات ، أشارت إلى جانب كتفي اليمنى .

- هل تنتظر أحداً ؟

تطلعت إلى السيدة البدينة ، القصيرة ، المبتسمة ، كانت تمسك بيدها جهازاً صغيراً للهاتف ، لا يتصل بسلك ، تتوسط سماعته البيضاء دائرة حمراء ، مضاءة بحدة ..

مايو ١٩٩٢

.. لم يكن اسمه غريباً . طالعته في بعض المجلات والصفحات الأدبية ، ينظم الشعر أو ينقده ، لم أتوقف عند سطوره طويلاً ، واحد من كثيرين يمضون حياتهم ما بين نظم أو نثر . ينشرون ، تصدر لهم كتب ولكن ما من وهج أو لمعة .

كان ينتظرني عند سلم الطائرة . بدا مبتسماً باستمرار مبالغاً في ترحيبه إلى حد ما . إنه أيضاً موظف في وزارة الإعلام ، وسوف يرافقني طوال أيام زيارتي . قلت إن الرحلة كانت هادئة وأن توقيتها مناسب تماماً . قال إن هذه الطائرات من طراز جديد يعمل لأول مرة في المنطقة ، تم تزويد الشركة الوطنية بها في إطار السياسة العامة التي تلتزم بها سائر المؤسسات الحكومية تنفيذاً لتوجيهات القائد ، ثم قال بسرعة «الله يحفظه» ..

لم أعلق . قلت لنفسي إن الدعاية بدأت ، وتلك العبارات يرددها في اللحظات الأولى عند وصول الزائرين أو المدعوين إلى الندوات والمؤتمرات الجديدة التي تعقد هنا .

لم تستغرق الإجراءات وقتاً ، كان ينادي ضباط الجوازات بأسمائهم ، وعندما اجتزنا منطقة الجمرك أومأ إلى الرجال الذين كانوا يرتدون زياً شبه عسكري ، سألته عن موقع المطار بالنسبة للمدينة ، قال إن المسافة طويلة ، حوالي أربعين كيلو متراً .

أبديت الدهشة والشفقة ، كنت أعرف رغبة الموظفين في الشكوى الدائمة من مشقة ما يقومون به ، وإذا وثقوا لمحوا إلى قلة الأجر وطغيان المحاسيب ، وتخطي القواعد .

تساءلت عن عدد المرات التي يتردد خلالها على المطار ؟

بدا تأثر على ملامحه ، قال إنه يقطعها أحياناً ثلاث أو أربع مرات يومياً،

وفي أيام المهرجانات الكبيرة ، ومع اختلاف مواعيد وصول الضيوف الذين يجيئون من كافة أنحاء الدنيا لايعرف للنوم طعماً ، يلتمس إغفاءات قصيرة ، متقطعة في الطريق .. يبدو أنه انتبه فجأة إلى رنة الشكوى في حديثه ، ضحك قائلاً :

– ولكن هذا يجعلنا سعداء ، العالم كله يتطلع إلى القطر .. الحمد لله .. الحمد لله ..

أشار بإصبعه وكأنه يتدارك أمراً ، قال إن المطار جديد ، وأنه مجهز بآلات حديثة جداً ، وطبقاً للخطة التي أقرتها القيادة وصدق عليها القائد – الله يحفظه – سوف يصبح أهم مطارات المنطقة ، ثم أشار إلى الطريق الذي تمرق عبره السيارة ، قال إنه لم يكن موجوداً من قبل شُق ورُصف في فترة قياسية ، قامت بتنفيذه شركة ألمانية متخصصة في الطرق الحديثة ، السريعة ، من قبل كانت المسالك المؤدية إلى المدينة ضيقة جداً بحيث لا يمكن لسيارتين أن يمرا جنباً إلى جنب إلا بحذر وصعوبة ، ثم قال إنه تم رصف ثلاثة آلاف كيلو مترات خلال العامين الماضيين ، وأنه من المنتظر رصف أربعة آلاف أخرى خلال العام الحالي .

كنت أحاول استيعاب كافة التفاصيل التي أراها لأول مرة ، هذا بلد لم أبلغه من قبل ، أشار إلى بناية مرتفعة ، فوقها أضواء حمراء لتحذير الطائرات ..

– هذا فندقك ..

بدت المنطقة المحيطة خالية تقريباً ، بعض أساسات خرسانية ، لافتات تعلن تأييد العاملين للقائد والمسيرة المباركة ، لم أدر نوعية المشروع ولا هدف المسيرة . خشيت الاستفسار فينطلق مرافقي في تعداد الفضائل ، والأرقام، في الفندق كان الموظفون ذوو ملامح أسيوية ، يتحدثون الانجليزية ، كنت مرهقاً ، راغباً في الانفراد ، واضح أن المدينة بعيدة ، لن أراها إلا في

الصباح، تهيأت لمصافحته مودعاً ، إلا أنه أشار إلى الحقيبة قائلاً إنهم سيضعونها في الغرفة ، إنه يرغب في إطلاعي على مرافق الفندق والأماكن التي يمكن ارتيادها للراحة ، بعد جلوسنا في المقهى غربي الطراز جاء النادل هندي الملامح ، قال إنه من موريشيوس ، قال مرافقي إنها جزيرة في المحيط الهندي – في مواجهة الساحل الأفريقي وأنه بلد صديق . القائد – الله يحفظه – يرتاح إليه كثيراً ويتردد عليه بين الحين والآخر ، عنده بيت خاص هناك ، وتربطه علاقة خاصة برئيسها .

ربما أدرك تساؤلي الوشيك عن هذه العمالة الأجنبية ، فندق عربي في عاصمة عربية ولم ألتق فيه حتى الآن ، بمن يتكلم العربية ، فيما بعد قال إن الإدارة أجنبية لكل شيء عدا البدالة العامة ، وكافة ما يتعلق بالاتصالات ، التلكسات ، الفاكسات ، الأمور هنا تتعلق بالأمن ..

– ماذا تشرب ؟

أجبت مبتسماً

– أنت الآن ضيفي .. دعني أسألك

بدون تردد التفت إلى النادل

– اثنان سكوتش

أبديت اعتذاراً ، لا أشرب ، بدا عليه حرج ما ، قال متسائلاً ..

– إذن .. بيرة ؟

قلت إنني خلقت هكذا ، عندي حساسية ضد الكحول ، لو تجرعت حسوة ترتفع حرارتي . يصبح جلدي في لون الطماطم . بدا آسفاً ، طلبت عصير فاكهة ، لم يثن .. أدركت إصراره على جلوسنا معاً ، وطبقاً لأصول الدعوات التي لبيتها من قبل والمؤتمرات التي شاركت فيها كنت أعلم أن الضيف ملزم بدفع المشروبات الكحولية والمكالمات الخارجية ، في البلاد العربية والأوربية أيضاً ، إذن .. تلك ميزانية إضافية يجب أن أعد لها ، بدا محباً للشراب ..

بعد رشفتين فاض وداً ، استعت عيناه ، بدا راغباً في القربى . سألني عن مقاهي القاهرة ، عن أماكن لقاءات الأدباء والندوات ، كان يعرف بعضها بالاسم ، للأسف لم ير أم الدنيا ، لاحظت أن نطقه صار متمهلاً ، متثاقلاً وهو يكرر مؤكداً أن مصر أم الدنيا ، أم العرب ، مال مقترباً مني ، قال إنه يشعر وكأنه يعرفني منذ فترة طويلة ، قلت إنني سعيد بذلك ، قال إنه سيفضي إليّ بما لا يقوله عادة للضيوف الرسميين ، خاصة الصحفيين ، قال إنه مكلف طبعاً أن يعطيني صورة صادقة عن البلد ، قلت إن هذا طبيعي ، لكنه أشار إلى صدره . بدا تأثير الشراب عليه ، لسانه أثقل ، عيناه وكأنهما على وشك النوم ..

– لكن كما نريدك نحن أن تراها ..

– وهل هناك فرق ؟

– كبير .. كبير جداً ..

كنت ما زلت حذراً ، أسمع أكثر مما أنطق ، لا أعرف ما يمكن أن يدبر لي هنا إذا ارتكبت خطأ ما . مال أكثر ، همس ..

– هل تعرف ماذا يجري الآن ؟

تطلعت إليه مستفسراً بصمتي

– أنهم يفتشون حقيبتك ..

– ولكن ليس معي ما يخشى منه ..

– هذه إجراءات .. مع أنهم كشفوا عليها في المطار .. لديهم القدرة على فتح أعتى الأقفال ..

ضحكت قائلاً إنني لا أغلق عادة حقيبتي ، لا يوجد فيها إلا ملابسي ، وعدة حلاقتي ، وأدويتي ، استمر هامساً ..

– لا يعرفون ذلك .. ثم إن كل تحركاتك في الغرفة مرصودة ..

تراجع قليلاً ، مبتعداً ، متطلعاً إليّ وكأنه يقف عند مسافة أبعد بكثير ،

يبدو أن لسانه يفلت مع الشراب ، طبيعي هذا أم متعمد !!

عندما التقت نظراتنا أدركت أنه يعاني حزناً هائلاً ، أشرت إلى النادل الموريشيوسي .

- كأس سكوتش أخرى ..

قال بمودة دافقة

- شكراً يا أخي ..

ثم قال بعد لحظات

- اسمعني جيداً

فأصغيت !

المقهى ..

.. بعد خروجنا من المتحف الوطني ، تطلع حوله ، بدا متفائلاً أو هكذا يجب عليه الظهور ، بعد استنشاقه الهواء البارد قليلاً ، قال ..

- الحمد لله ..

تعجبت ، لم يتصل الحديث بيننا لينطق الحمد لله بهذه اللهجة ، قال مواصلاً وكأنه يتحدث إلى نفسه ..

- محصول الفاكهة هذا العام ممتاز .. ضعف العام الماضي ، الموز يزرع لأول مرة ، أما التفاح فلا يجد من يشتريه لوفرته ..

أشار بإصبعه منبهاً ..

- القائد - حفظه الله - يتابع جني المحاصيل بنفسه . اليوم سيعرض التليفزيون فيلماً لمدة أربع ساعات عن زيارته أمس إلى محافظات الوسط .. لابد أن تراه ..

- والعرض المسرحي ..

- المسرح موجود كل ليلة .. لكن الفيلم لن يعرض .

أثناء مرور السيارة .. بمنطقة تتراص فيها مساكن متشابهة ، الارتفاع ،

بسط يديه مبتسماً ، كأنه يحدث نفسه .

- يا سلام .. أين كنا وكيف أصبحنا ؟

لم يبد مني رد فعل ، واصل بدون النظر إليّ ..

- حُلّت أزمة الإسكان تماماً .. عدد الوحدات التي شيدت في العام الأخير أضعاف ما تم بناؤه خلال ربع قرن ..

عندما نظر إليّ أومأت برأسي مرتين ، كان بصره موزعاً بيني وبين السائق الصامت الذي كان يتطلع بين الحين والآخر إلى المرآة المعلقة العاكسة ، ازدادت لهجته حماساً ..

- يحرص القائد - الله يحفظه - على متابعة أعمال البناء بنفسه ، وتسليم المفاتيح إلى الأسر الجديدة ، بل إنه يتردد عليهم على فترات ، يشرب الشاي ، ويدخل المطبخ ، يقلب الأواني .. تصور .. ليطمئن على مستوى المعيشة ، ويتلطف مع الأطفال .. تصور أن طفلاً صغيراً زغده بسيخ لشي اللحم .. ما كان من طويل العمر إلا أنه ملس على شعره وقبله ..

- كل هذا في التليفزيون ..

بلغ حماسه درجة الصياح

- على مرأى من الأجانب ، من العدو قبل الصديق .. أخرجت مفكرتي الصغيرة ، دونت عبارتين «الله يحفظه» ، «طويل العمر» ، كتبت متمهلاً ، بدا مسروراً لتدويني ما يقول .

- بعد الظهر عندنا ساعتان نقوم خلالهما بجولة حرة في البلد ..

قلت إنني أرغب في الجلوس بمقهى شعبي .

- مقهى شعبي !

بدا مفاجئاً ، قلت إن علاقتي بالمدن لا تكتمل إلا بالتردد على مقاهيها الشهيرة ، ولأنني مدخن قديم للنرجيلة فقد سمعت كثيراً عن جودة التنباك في البلد ، قال متردداً إن مثل هذه المقاهي لا يرتادها إلا المتعطلون والمحالون

للتقاعد ، وأصناف رديئة من الناس ، هنا تدخل السائق لأول مرة ، قال إنه يعرف مقهى جيداً ، نظيفاً ، يقدم مشروبات طيبة ، وبه قسم مخصص للعائلات ، أبديت حماساً ، قلت أن هذا مناسب تماماً .. لنذهب الآن ، توقفنا أمام مرتفع من الأرض ، درج صاعد محفوف بأشجار نحيلة ، أزهارها بنفسجية مكتملة قال السائق إنه سيرجع بعد ساعة سيزود العربة بالبنزين ، بدا مرافقي متردداً ، يتطلع حوله بريبة وحذر ، كانت المناضد موزعة حول المبنى ، أبيض اللون ، تتصدره صورة كبيرة للقائد ، بينما علقت بين الأشجار لافتة على قماش مهترئ ، كتبت عليها جملة :

«سدد الله خطاك» انتحينا ركناً ، ولأنني لمحت اثنين يضعان أمامهما زجاجات بيرة فارغة ، سألت مرافقي إذا كان يرغب ، فقال إنها أنسب مشروب للظهيرة ، طلبت شاياً ونرجيلة ، بعد انتهاء الزجاجة الأولى استرخت ملامحه ، بدأت تتغير إلى حد ما ، قال إنها المرة الأولى التي يتردد فيها على مقهى منذ الطفولة . كان والده يصحبه إلى مقهى قديم في الشارع التجاري ، يجلس متربعاً على دكة ويدخن النرجيلة ، يقعد إلى جواره صامتاً ، يتذكر الآن رائحة الدخان والماء المعطر ، كان زمناً جميلاً ، خالياً من الهموم ، صمت لحظات ثم قال إنه من غير المستحب جلوس الموظفين الرسميين بالمقاهي ، خاصة أعضاء الخلايا الثورية ، قلت إن المقاهي أفضل الأماكن للوقوف على نبض الشعب ، تلفت حوله . قال إن هذا من اختصاص أجهزة معينة ، بعد الزجاجة الثالثة مال رأسه قليلاً إلى الأمام . خفض صوته ، قال إن السائق يكتب تقريراً عنه ، وعني ..

- لكنه ساكت تماماً ..
- إنه من جهاز الأمن السري .. أرجو أن تحذره ..
- لماذا .. أنا ضيف عابر ..
- لن يحاسبوك أنت بالطبع ولكنهم سيحاسبونني أنا ..

- على ماذا ؟

- أي شيء .. أي شيء ..

انحنى إلى الأمام قليلاً ، قال إن هذه الصورة المعلقة للقائد تنفيذاً لتعليمات صارمة ، إن لم توضع يتعرض صاحب المكان لخطر عظيم . ثم قال إن الصور عديدة ، منها ما يبلغ حجمه ارتفاع عشرة طوابق ، ومنها ما يوضع داخل الحافظات الجلدية ، وعلى الصدور في إطارات الذهب وهذا غير مسموح به إلا للمستويات الرفيعة .

قال إن المكان هادئ وجميل . وهنا يضمن المرء عدم وجود أجهزة تسجيل أو تنصت ، قلت ضاحكاً ..

- من يدري ؟

تلفت حوله ، المناضد القريبة خالية ، الرواد قلائل .

- من الزفضل أن نصمت أو نغير الحديث عند اقتراب النادل ..

قال إن ما قاله عن محصول الفاكهة غير حقيقي ، كل ما رأيته في الأسواق مستورد ، وأثناء زياراته ..

- زيارات من ؟

أشار إلى الصورة المعلقة ، قال إنهم يرصون الزهور والخضراوات وصناديق البيض ، بل يزرعون أحياناً بعض الأشجار ، ثم يختفي هذا كله بعد ذهابه ، كل هذا من أجل التليفزيون .. التليفزيون يحكم كل شيء هنا .

كدت أقول إنني بالأمس عدت إلى الفندق في السادسة ، وبدأت نشرة الأخبار بإذاعة تفاصيل زيارته إلى المحافظة الوسطى ، نمت ساعتين وعندما استيقظت فوجئت أن اللقطات ما زالت مستمرة ، لكنني لم أفض إليه ، فضلت الاستمرار في موقع المستمع ، خاصة عندما هز رأسه بحزن وأسى ، وقال إن كل ما ذكره عن المساكن غير حقيقي ..

- لكننا رأيناها .. إنها جديدة ..

هذا صحيح ، لكنها توزع على المقربين ، وأعضاء الخلايا الثورية ، وأبناء بلدته وهؤلاء يقومون بإعادة بيعها أو تأجيرها بأسعار مرتفعة جداً ، توقفت قليلاً قبل أن يسأل ..

– لقد لمحتك تكتب بعض الملاحظات ..

– هذه عادتي ..

أشار محذراً ، إن مفكرتي تلك ربما تقع في أيديهم بشكل ما ، إنه يرجوني ألا أدوّن فيها إلا كل ماهو إيجابي ، سوف يؤذيه هذا تماماً ، إنه مسالم ، ولا يثير المشاكل ، ولكنهم لا يثقون فيه تماماً ، نعم .. نعم إنه عضو في الخلية الثورية الإعلامية ، لكن ماضي عمه يطارده ، كان موظفاً كبيراً في العصر الملكي الذي سبق العصر الثوري .

قلت إنني سوف أراعي ذلك ، بل سأكتب سطوراً أشيد فيها بدوره في تنبيهي إلى الإنجازات ، والانتصارات ، تراجع إلى الخلف ، بدا متأثراً جداً ، لمحت دمعات معلقة على أطراف مآقيه ، قام على مهل ، مضى بخطى متثاقلة إلى المبنى ، لابد أنه مفعول الزجاجات الثلاث ، بعد عودته قال ملامساً كتفي إنه لم يرتح إلى إنسان مثلي وأنه فض أثقالاً كان ينوء بها ، وأنه يعرف شهامة المصريين ، وبالطبع ما أسمعه لن أبوح به إلى مخلوق آخر

– طبعاً .. إنني أعتبرك صديقاً حميماً الآن ..

– ولا في القاهرة .. ربما يرتد ذلك هنا بشكل ما ..

أشرت إلى أذنيّ ، قلت إن ما أسمعه يدخل من هنا ويخرج من هنا ، مد يده إلى جيب جاكتته ، أبرز حافظة نقوده ، في الجانب الأيمن صورة للقائد داخل إطار بيضاوي . الأيسر صورة لثلاثة أطفال ، تتوسطهم طفلة في الثامنة أو التاسعة ، أشار إليها بفخر قال إنها تعزف البيانو ، ويتنبأون لها بمستقبل باهر . قال إنها طلعت على التليفزيون ، قال إن الولد الأكبر في الثالثة عشرة ، إنه في تنظيم الطلائع ، إنه ملتزم جداً ، لم أشأ أن أستفسر ..

- ربنا يخلي ..

قال إنه عرّفني على الأسرة وهذا مالم يفعله مع أي إنسان قبلي ، إنه يرافق الأجانب دائماً ، خاصة الألمان لإتقانه اللغة ، ما جذبه إليّ بساطتي ، لم يحدث أن ضيفاً رسمياً طلب الجلوس بمقهى قط ، تنفس بعمق ، ثم قال إنه يود الاعتراف بما يثقل ضميره .. ابتسمت مشجعاً ..

- إنني أكتب عنك تقريراً يومياً ..

قلت إن هذا من واجبات وظيفته .

- لكي أثبت لك محبتي .. هذا التقرير لن أرسله قبل اطلاعك عليه ..

بسطت يدي ، لا داعي لذلك ، كان على وشك الترنح وهو يؤكد بشفتين مضمومتين ..

- بل إنك ستشاركني في كتابته .. أنت الآن مثل أخي ..

الشرفة :

بعد تجرعه أربع كؤوس سكوتش يطلب الصعود إلى الغرفة ، إذا انفردنا في المصعد ، يهمس زاعقاً تى تكاد عروق رقبته تنفجر عن رغبته في السفر بلا عودة ، ما يمنعه صعوبة الإجراءات ، وأطفاله الصغار ، كثيرون هربوا ، لكنهم فرادى ، لم يرتكبوا حماقته ، الزواج مبكراً ، يتدارك بسرعة .. لكن الأولاد يخففون عنه الكثير ، بعد عودته يجلس معهم ، يستنفرون طفولته الكامنة ، ما يزعجه فقط ابنه الأكبر الذي يردد شعارات الطلائع والأقوال المأثورة للقائد .

- شيء لا يطاق ..

تقدمته إلى الحجرة التي كانت في نهاية الممر ، خرجنا إلى الشرفة الفسيحة أغلقت الباب المؤدي إلى الداخل ، كان يستنشق الهواء بعمق ، أخرج من جيبه أوراقاً بيضاء ، كان مكتوباً على أولها اسمي الثلاثي ، والجهة التي أعمل بها ، راح يكتب على مهل ، ناطقاً الكلمات بصوت خفيض ..

- .. وأثناء زيارتنا لمصنع الملابس الجاهزة أبدى إعجابه بالإنجازات التي تحققت ، وتحدث مع العمال عن الإنتاج ، وقال إنه على مستوى عال من الجودة ..

- متى قلت ذلك ؟

أشار بيده

- كلام يا أخي .. كلام .. هل ستنقص شيئاً ..

ثم تابع ..

- وهو إنسان رقيق ، على درجة عالية من الثقافة ، ومتعاطف مع مبادئ القطر .

هنا اقتربت منه ، قاطعته ..

- لكن هذه صورة إيجابية جداً ..

تطلع إليّ متسائلاً ، قلت إنهم ربما لا يصدقون التقرير ، لابد من كتابة شيء ما ، لمحة سلبية لتضفي مصداقية ، بدا حائراً ..

- مثل ماذا ؟

- دعنا نفكر معاً ..

مس من مرح انتابني ، بعد لحظات لمست يده

- آه .. أكتب مثلاً أن من الأمور السلبية حبي لتدخين النرجيلة .. وطول الجلوس على المقهى ..

- لكن .. ربما يفسرون ذلك

- لا بد أنهم عرفوا بذهابنا إلى المقهى ..

كان الهواء البارد القادم من الفراغ يحدث صوتاً غامضاً ، يبدو أنه خفف من تأثير الكؤوس الثلاث التي تجرع كل منها دفعة واحدة ، تخف لهجته ، أقل تثاقلاً . ملامحه تكتسي ذلك الجمود الذي يطالعني عند قدومه ، خاصة في الصباح ، قام واقفاً ، تطلع إلى الفراغ ، إلى الحاجز الذي يفصلنا عن

الشرفة المجاورة ، إلى الأوراق فوق المنضدة ، لملمها بسرعة ، دسها في جيبه ، بماذا يمكن أن يفسر وجوده هنا ؟

- دعوتك يا أخي ..

- لكن هذا هذا غير معتاد ..

نظر إلى السقف ، إلى السماء البادية ، إلى الأركان ، كنت أخشى وقوع أمر ما لم أستطع تحديده ، تصاعدت رغبتي في مفارقة المدينة ، القطر كله ، سأختصر تلك الزيارة . أزاح الباب الزجاجي ، الستائر ، بدا صوته المرتفع مختلفاً تماماً ، نبر اسمعه للمرة الأولى .

- هذه الشركة التي تدير الفندق يجب أن تحاسب ..

تأملته متسائلاً ، بينما موجات الهواء البارد تتعاقب بعد فتح الباب ، يمط شفتيه مستنكراً ، مشيراً إلى الجدران المكسوة بورق أزرق ، فوق السرير لوحة لأحد المواقع الأثرية بالقطر . يبلغ صوته درجة أقرب إلى الصراخ بينما أصبعه تشير مهددة ..

- لأول مرة أرى مكاناً يخلو من صور القائد ..

لحظة صمت ، صاح بعدها مولياً وجهه تجاه الجهات .

- الله يحفظه ..

مايو ١٩٩٢

الليلة الأولى

أخيراً تخلو إلى نفسها ، تغلق باب غرفتها ، منهكة ، متعبة ، تصغي إلى الليل الذي انتصف منذ حوالي نصف ساعة ، إلى الطريق الذي تطل إليه من ارتفاع خمسة طوابق ، بعض الأصوات كانت تسمعها أثناء انتظارها عودته في الليالي التي يتأخر خلالها ، إذ يُعرِّج على أسرته ، يزور أشقاءه ، أو يسهر مع صحبه في المقهى ، إغلاق باب ، مرور عربة مسرعة ، نباح كلب ضال ، أصداء أحاديث بعيدة غامضة ، اعتادت ألا تغفو قبل قدومه ، وانتظار خلعه ملابسه وجلوسه قليلاً بالصالة ، سؤالها التقليدي .

«تعشيت ؟»

مع أنها تعرف عادته ، تناول كوب من اللبن مع كعكة يابسة ، وكثيراً ما كان يشكو متاعب معدته ، كأنه على وشك ، لكنه لا يقيء !

هل كانت الأعراض علامات لم يتعداها ، ولم تتوقف عندها أيضاً ، كانت تبدي جزعاً مفتعلاً ، إذا تذكر قول أمها إن الرجال كالأطفال ، يحبون الشكوى دائماً ولفت النظر بإظهار الأمراض ، علاجهم الإهمال ، لكنها الحق أبدت اهتماماً في كل مرة ، كثيراً ما نصحته بالذهاب إلى الطبيب ، يبتسم قائلاً إنه جاء من أسرة كادحة ، لم يكن أحد أفرادها يبلغ العيادة أو المستشفى إلا وهو على حافة الخطر .

المرة الوحيدة التي شعرت فيها بدنو الخطر منذ أسبوع ، عندما صمت فجأة أثناء جلوسهما أمام التليفزيون ، مال إلى الأمام ممسكاً بصدره ، البنت فزعت، لن تنسى صيحتها أبداً «بابا .. بابا» ، أطلق ريحاً متتابعاً بصوت متتابع ، حاد ، انفرط فوق الأريكة ، الغريب أنه لم يشك بل ابتلع ريقه . فتح عينيه . طمأنهما . قال إنها الشمس التى مشى فيها حوالي ساعة ، تجرع كوب اللبن الذي أعدته المسكينة ، الراقدة الآن كالمغشي عليها ، بعد أن

فراهما الفقد المفاجئ ..

الفراق صعب ..

لكم ضاقت بهؤلاء النسوة ، أقاربها ، جاراتها ، زحمن البيت . دموعهن على أنفسهن ومواجعهن القديمة والجديدة ، بعضهن رحن يثرثرن ، ويتحدثن همساً عن مشاكل فلانة مع علانة ، أو زوج رمى عينه على أخرى ونوى ، أو ارتفاع أسعار الخضر ، الوحيدة التي بدا حزنها جللاً ، صعباً ، شقيقته ، لم تتزوج حتى الآن ، تعيش بمفردها ، تقترب من الخمسين ، لكنها تبدو وكأنها تجاوزت الستين ، مال بختها ، كان أمرها يشغله ، لا يخلف زيارته الأسبوعية لها ، كان يحن عليها ، وكانت تثق أنه يساعدها بجنيهات قليلة من المكافآت الإضافية التي لا تعلم عنها شيئاً ، بالطبع مرتبها الضئيل لا يكفيها ، من عملها في مكتب المحامي الذي التحقت به بعد حصولها على دبلوم التجارة المتوسط من المدرسة المسائية بالفجالة ، ساعدها ، أحد معارفه من المقهى أخذها عنده سكرتيرة ، كانت تتردد نادراً على البيت ، حتى أنها لم تأت في الأعياد ، لا .. بعض الأعياد ، ألم تكن هنا في العيد الصغير السنة الماضية؟، كانت تتصل أحياناً وإذا رن الهاتف يرد عليها جزعاً ، ما الذي أخرها حتى هذه الساعة ؟

يطلب منها سرعة العودة إلى البيت والتأكد من إغلاق الترباس والقفل . البلد غير آمنة ، كان يخاف عليها وكأنها طفلة مع أنها تكبره بعامين ، مرة قالت له بعد انتهاء مكالمة :

«أنها ليست صغيرة .. »

أجابها متمهلاً ، إنها وحيدة وما من أحد إلى جوارها .

ربما تمنى المجيء بها وإقامتها هنا .. لكن البيت ضيق ، وهي منطوية ، قليلة الكلام . من يطيق نفسه في هذا الزمان حتى يطيق الآخرين ؟ أحياناً تتصل ، تسأله عن الصحة ، والأحوال ، عن ابنة شقيقها ، أخبارها في

المذاكرة ، أحوالها ، إذ تطول المكالمة تضطر إلى تنبيه ابنتها إلى المحاضرات التي يجب أن تنقل ، وضرورة النوم مبكراً ، تشير بيدها للإسراع . عندئذ تقول :

«والنبي تعالي ياعمتي .. أنا نفسي أشوفك قوي .. »

لا .. لم تكن قاسية ، لكنها كانت تخشى بشكل غامض على وحيدتها ، أن تلقى مصير عمتها ، أن يفوتها قطار الزواج . على أي حال . لم يفتها قطار الزواج . لم تقصر معها ، كانت تبتسم في وجهها خلال مرات قدومها النادرة ، بل تصر على بقائها لتناول الغداء ، وإذ تصر على الذهاب يتصاعد تصميمها واحتجاجها .

«معقول أن تجيئي ولا تكسري لقمة في بيت أخيك ؟! »

بعد انصرافها تشعر براحة ، هل ضايقه وهن الصلة بينهما ؟ من ناحيتها لم تقصر في الواجب ، ألا يكفي تغاضيها عما كان يدفعه لها من جنيهات كان بيته أحق بها ؟ لو أنها امرأة أخرى لأثارت له المشاكل .

لكن .. لماذا بدا حزيناً في أول حلم يأتيها فيه ؟ في العصر ، بعد أن ألحت على ابنتها كي تأكل لقمة ، منذ أول أمس لم تدخل معدتها لقمة كمداً ، لم تطبخ ، لم تنزل السوق ، لم تستطع ترتيب البيت الذي اختل نظامه . حتى أنها لم تجمع حاجاته المتناثره في البيت إلا قبل الغروب ، ملابسه الداخلية فوق الغسالة ، وحذاؤه في نفس الموضع الذي اعتاد أن يخلعه فيه ، قرب المدخل ، ولكم أبدت الملاحظات ، أن ينظم تغيير ثيابه ، ولم يجبها إلا مداعباً ، كانت لديه قدرة على تجنب الشقاق لأسباب يراها صغيرة ولا يعلم أنها كفيلة بإثارة أعصاب أي ست ! ، أما نظارته الطبية فكانت إلى جوار التليفزيون ، ومحفظته الجلدية القديمة والحقيبة الجلدية التي يضع بها أوراقاً تخص شغله ، لا تعرف شيئاً عنها ، جمعت هذا كله بدون ترتيب ، أخفته وراء الكنبة ، البنت كلما نظرت إلى حاجات أبيها تعض أصابعها ، وتخمش

وجهها .

«سايبني لمين يابا ..»

ما أزعجها أنها نفس العبارة التي رددتها شقيقته ولكن بدون عويل ، لحظة حملهم الجثمان لوضعه في الصندوق الذي فتحوه عند مدخل البيت ، فارقها صمتها الغريب ، انحنت فجأة ، تعلقت بالجثمان الملفوف ، تشنجت أصابعها .

«سايبني لمين يا أخويا ..»

أحاط بها من تعرف ومن تجهل ، همسوا في أذنيها بآيات مهدئات ، وسمعت أحدهم يقول بحسم :

«ماتخليش أخوك يتبهدل ..»

«عندها ارتخت أصابعها ، بقيت شاخصة ، ذاهلة ، لم تبدل وضعها ولا ملامحها حتى بعد أن غص البيت بالمعزين ، ومالت عليها امرأة مسنة ترجوها ملحة أن تلطم ، أن تبكي ، أن تشق هدومها ، ولكنها لم تنطق . وآخر العزاء قامت ، أصرت على الانصراف ، مشت مصممة ، لم تصافح أي إنسان ، لو أنها بقت لأصبحت عبئاً على البنت ، صمتها فظيع ، حتى عندما جاءت ، احتضنت ابنة شقيقها لدقائق ، وبدا أن كلا منهما تستنجد بالأخرى ، تستند عليها ، وعندما سأل أحد الجيران : «هل أوصى ؟»

كانوا يتحدثون عن المسجد الذي ستتم فيه الصلاة ، لا تدري كيف سمعت، خرجت من الغرفة الداخلية ، وقفت وسط الرجال مشيرة بإصبعها ، محذرة ، منذرة ..

«في الحسين .. في سيدنا الحسين»

متى أوصاها بالصلاة عليه في مسجد الحسين ؟ لم يخبرها بذلك ، هل شعر أن أجله يدنو ، عندما بدأت الأزمة ظنته تعباً عارضاً ، وبعد خروج الطبيب الشاب صاحب العيادة الجديدة عند الناصية والذي جاء بعد انتهاء

عمله فيهن ، قال إنها أزمة قلبية ، ولا يمكن نقله ، لكن يمكن تلقيه العلاج هنا ، لحظتها لاح لها النذير ، لكنها بعد دخولها عليه ، وابتسامة في وجهها استعادت ما سمعته عن آخرين فاجأتهم تلك النوبات مرات ونجوا منها ، لم تفارقه حتى الفجر ، كانت ملامحه التي تبدلت فيما بعد هادئة ، مستكينة ، بل إنه ابتسم مرات عندما نظر إليها ، ماعدا كَرْشَةِ النفس التي لم تعهدها قط. كل ربع ساعة أو عشر دقائق تقريباً يسألها عن الساعة ، كأنه على موعد ، كأنه توقع زائراً أو ظهور علامة ، حتى أنها قالت مرة : لماذا تسأل عن الساعة .. الليل مازال بعد طويلاً ..

ليلها هو الذي طال ، لم تعرف هذا الصمت ، وكأن وجوده كان يبدده ، عند لحظة معينة تختفي كافة أصداء الطريق ، والبيوت المجاورة ، كأنها لحظة مجيئها الأولى إلى الدنيا ، تركها مبكراً ، خلا بها ، تكاد تنطق ما يدور داخلها ، توشك أن تلومه وكأن الأمر كان بيدها ، تلك صورته ، تعدل وضعها بحيث لا تواجه ملامحه السرير ، دائماً كان عنيداً بصمته ، لكم ألحت عليه أن يسافر مثل زملائه ، انتداب أو إعارة في بلد عربي لثلاث أو أربع سنوات ، لكنه لم يقدم ، لم يسع ، قالت إنهما بحاجة إلى ادخار مبلغ للزمن ، للبنت التي سيجيؤها ابن الحلال بعد سنوات قريبة ، تكاليف الحياة في ازدياد ، وما كان يكفيهم أمس لا يصلح اليوم ، لكنه كان يسمع من اليمنى ويخرج كلماتها من اليسرى ، وإذا ألحت يقول بصوته الهادئ «وهل ينقصنا شيء ..»

فتجادله متسائلة ، هل الدنيا أكل وشرب ؟ ومرة قال إنه لا يطيق الغربة ، أو البعد عن مصر .. مصر . ماذا أخذوا من مصر غير وجع القلب وصعوبة الأحوال ، وقضائه الوقت بالمقهى ؟

لو فاجأته الأزمة أثناء عمله هناك ربما نقلوه إلى مستشفى حديث وأمكنهم إنقاذه ، لو طال به المرض .. هل كان لديهم ما يكفي مصاريف المستشفى ؟ وأي علاج كانت ستقدمه المصلحة .. ؟ أي علاج ؟ لكنه لم يصغ إليها قط ،

مجرد مبلغ صغير لا ينفع ولا يضر في دفتر التوفير ، ولولا أنه استخرج الدفتر باسم البنت لكان دون صرفه أهوال وإجراءات تكلف أكثر من قيمته ، من مصاريف محكمة وإعلان وراثة ، وربما تدخل شقيقته معهما لتأخذ نصيبها.. لا ، لم يحسن التصرف وفارقها بلا عون .

تقف في الغرفة التي تبدو فسيحة أكثر ، رفضت ابنتها أن تنام إلى جوارها ، مكانه ، قالت بحزم مؤثر إنها تفضل النوم في سريرها .

بعد الظهر جاءت جارتهم في الشقة المقابلة بطعام الغداء ، طبق بسلة ونصف دجاجة وأرز وثلاثة أرغفة ، شكرتها متأثرة ، تمنت ألا ترده في مناسبة وحشة ، البنت بكت ، نظرت إلى مكان والدها ، لسنوات طويلة لم يأكلوا إلا معاً ، كانت تنتظره حتى لو تأخر ، رجتها ، طيبت خاطرها ، منذ الأمس لم تدخل بطنها لقمة ، وحتى تشجعها بدأت تأكل ، منذ لحظات أطلت لتطمئن عليها ، نادتها بصوت خفيض ، لم تجبها ، أصغت إلى أنفاسها المنتظمة ، عادت إلى غرفتها ، أبقت الباب مفتوحاً .

عندما اضطرت إلى الإغفاء عصراً ، ما بين يقظة غير مكتملة ونوم لم توغل فيه ، جاءها مع أنها سمعت يوماً من تقول باستحالة ظهور الميت قبل سبعة أيام .

رأته في الصالة ، بالضبط في المكان الذي اعتاد قراءة الصحف فيه ، غير أنه كان يثني ساقاً تحته ويفرد الأخرى بينما يميل إلى الأمام عاقداً يديه أمام صدره ، يرتدي ثياباً قاتمة ، يبدو حزيناً ، حزن لم تعرفه منه ، مزموم الشفتين، مجهد العينين ، يتطلع بأسى صوب ابنته وشقيقته ، وقفتا أمامه ، تبدو المسافة شاسعة رغم ضيق الصالة ، كأنه يود أن يقول شيئاً لكنه لا يقدر .

تقعد على حافة السرير ، الحق أنه كان حنوناً ، كريماً في حدود قدرته ، لم يبخل على ابنته قط ، لم يدعها تنطق بما تحتاج إليه ، يوماً طلبت على استحياء حذاء رياضياً مرتفع السعر ، لم يتأخر ولم يتردد مع علمها أنه لم

يبق لنفسه مليماً من مصروفه ، لشهر كامل لم يدخن ، لم يذهب إلى المقهى إلا مرة ، كثيراً ما رددت ..

« يابختك بأبوك.. »

لكنه حيرها أيضاً ، خاصة تردده إزاء أمور بدت لها ضرورية ، وإبداؤه أسباباً غريبة ، عندما ألحت في بياض الشقة قال إن ذلك سوف يسبب له إزعاجاً ، عمال غرباء سيدخلون ويخرجون ، وأثاث يجب فكه وتركيبه ، ثم إن طلاء الجدران مازال نظيفاً ، ما الداعي إذن ؟ كل الجيران أعادوا تبييض شققهم ، بعضهم لصق ورقاً ملوناً ، هم فقط الذين لم يبدلوا ولم يغيروا .

كان يقبل عليها فجأة ، يبدي وداً متدفقاً حتى لتتدلل عليه بينما بهجة تغمرها ، تنبهه إلى دعابات لا يصح أن يبديها أمام البنت فلا ينثني إنما يواصل ، وتبدو البنية سعيدة ، تبادله مرحه ، يحتضنهما معاً فيغمرها تأثر .

في اليوم التالي مباشرة ، ربما في اليوم نفسه يصمت ، تأسو ملامحه ، تسأله فلا يجيب ، تستفسر فلا يبدي سبباً معقولاً ، صحيح أنه لم ينطق لفظاً يجرحها ، ولم يعنف معها عند غضبها ، لكن خموده المفاجئ ، وانغلاق مسامه أمامها كان يحيرها ويدفعها إلى الزهق .

لكم تمدد بجوارها فوق الفراش وكأنه غير موجود ، وكثيراً ما رغبته لكنها أحجمت ، وبعد مرور ليلة أو اثنتين يقبل تجاهها ، يداعبها ، يمد يده إلى صدرها ، يقبل أطرافها ، وإذ يبدأ تجاوبها ، تهمس عاتبة أنها كانت تريده أمس ، فيقول إنه كان يريدها أكثر ، تعجب لعدم شروعه ، أهو الكسل ؟ أو انشغاله بما لا تعرف ، أحياناً كان يسعى إليها وكأنه يؤدي واجباً ، يحتضنها وكأنه يتثاءب ، ومرات يقبل كعاصفة ، حتى لتبدي ألماً فلا يزيده ذلك إلا إمعاناً ..

تتوالى عليها صور شتى عرفتها معه داخل تلك الحجرة ، فوق هذا الفراش، بدءاً من خيبات الليالي الأولى التالية لزفافها إليه ، حتى المرات

التي حاول خلالها جسديهما التعرف على بعضهما ، استغرق ذلك زمناً طويلاً، راح منها ومنه ، وعندما بلغت ذروة النشوة لأول مرة بعد سبع سنوات من زواجهما وأربع من إنجابها عايدة ، لم تكبح نفسها ، راحت تهتز بعنف أدهشه، ودست وجهها في صدره دامعة ، ومنذ ذلك الحين أدرك علامتها ، وفهم إشارتها ، لكنه لم يسع إليها بما فيه الكفاية ، كان قادراً ولم يفعل ، حتى أدركه الوهن ..

تدي رأسها في الوسادة ، هل يصح تفكيرها في أمور كهذه ؟

هل يراها الآن ؟

هل يعرف بما تفكر فيه ؟

تراه في أماكن شتى ، فوق يابسة ، يمشي على ماء لا تعرف عمقه ، يعلو في فراغ بلا حد ، يختفي تماماً لكنها توقن أنه موجود في حيزها ، تقوم فجأة هل وسنت ، هل راحت في النوم ؟

أي ساعة الآن ؟

كأنها نعست يومين متصلين ، تصغي إلي تدفق غريب داخلها ، يأتيها من مسارب غامضة ، يدفعها إلى مفارقة الفراش ، الرغبة في الخروج إلى الطريق، إلى موعد لا تعرفه يجب اللحاق به ، شيء ما يسري ، تعبر الصالة ، تصغي، لا شك أن ابنتها تغط في نوم عميق ، تتردد أنفاسها بانتظام ..

تتراجع على أطراف قدميها ، تحذر أن تحدث صوتاً . تغلق بابها بالمفتاح، تماماً كما كانت تتأهب للخلوة به إذ تلوح منه البادرة ويقبل .

تقف أمام مرآة الصوان ، تقترب منها ، تلك القتامة تحت العينين ، اصفرار الأسنان ، الجير المتراكم عند الجذور وخلال الفراغات بداية تشقق في شفتيها ، تعب سنين طويلة ، وإرهاق يومين لم تعد لهما ولم تنتظر طولهما بهذه السرعة ، لم يخطر ببالها رحيله المباغت ، انفرادها ، تقطب عينيها .. لكن الملامح لم تذو . زميلاتها قدرن عمرها دائماً بسبع سنوات أقل ،

بالتأكيد لم يكن مجاملات .

تستدير قليلاً ، نظرة جانبية ، تنحني إلى الأمام ، من مثيرات كوامنها أن تتطلع خلسة إلى مؤخرته في حركتها الصاعدة ، النازلة بين ساقيها إذ تشب برأسها ، تغمض عينيها بسرعة حتى لا يلحظ ، لم تطلعه على ذلك ولم يبذل جهداً ليعرف . تغمض عينيها ، لم تنظر إلى غيره قط ، وكثيراً ما قمعت انفلات أحلامها ، وصدت بحزم صارم أي محاولة اقتراب ، بالنظرة ، بالكلمة، بالإشارة من أولئك المترصدين أى ثغرة .

لم تخطئ في حقه .. لكنه .. لكنه لم يفهم ..

تشير إلى عنقها ، إلى صدرها ، تملس كتفها اليمنى بيدها اليسرى ، تزيح حمالتي القميص . ينزلق إلى أسفل ، ترهل ثدييها قليلاً لكن استدارتهما مكتملة ، لم تفسدهما رضاعة طفلة واحدة فطمت مبكراً ، واجتيازها الأربعين بعامين ، لم يبرز لها كرش ، مازال خصرها عذراوياً وحوضها رحباً .

تتراجع متثنية ، متأودة . تستقر عند حافة الفراش ، تتجرد من آخر قطعة تحجب مكنونها ، تتمدد فوق الفراش ، منتصفه تماماً .. كما رغبت !

مايو ١٩٩٢

.. فارق المبنى الصغير لمحطة الضاحية في نفس لحظة تحرك القطار الكهربائي متجهاً إلى الجنوب . يتلاشى ضجيج العجلات فوق القضبان ، ثلاث عربات أجرة تنتظر ، يبتعد الركاب القلائل إلى الشوارع الجانبية المحفوفة بالأشجار .

على الناحية الأخرى مطعم برأق الأضواء من سلسلة مطاعم حديثة انتشرت خلال السنوات الأخيرة . لكنه لا يرى أي إنسان داخله ، لا باعة ولا زبائن .

يتوقف لحيظات قبل اقترابه من السيارة الأولى ، يخرج المظروف من جيبه. يتأمله ربما للمرة المائة ، شعار المدرسة ، اسمه ثلاثي مكتوب بحروف آلة حديثة ، يقرأ خطاب الدعوة إلى حضور اجتماع مجلس الآباء السنوي . تنبيه بضرورة المشاركة لمناقشة جدول الأعمال وإقرار الميزانية ، توقيع الناظرة المطبوع .

يمط شفتيه مقطباً .

أي ناظرة ؟

أي مدرسة ؟ أي مجلس آباء ؟

لم يكن أباً ، لم يتزوج ولم ينجب ، إنه وحيد تماماً إلا من صحب عابرين يلتقي بهم أحياناً في المقهى ، وزملاء عمل لا يعرف عنهم أكثر مما يبوحون به على مرأي ومسمع ، بل إنه يجتهد الآن لاستدعاء ملامحهم فلا يمكنه .. ماعليه ، فلينتبه الآن إلى ما ينتظره ، يردد «أي أولاد ؟ كيف حدث ذلك ؟» يتقدم من عربة الأجرة ، سائق صغير السن ، لم يسأله إلا بعد تحركه ، عند ناصية الميدان ، عندما ذكر اسم المدرسة ، تساءل .. «الاجتماع السنوي ؟؟»

ينظر إليه متعجباً ، يقول إنه قام بتوصيل اثنين من الآباء قبله ، إنه يعمل

داخل الضاحية فقط ، لأن ضابطاً في المرور يتعمد استخراج رخصة قيادة له . لو تم ذلك يمكنه نزول البلد ، والذهاب إلى المطار ، الفرص هنا محدودة ، والعمل بطيء لأن السكان معظمهم أجانب أو مصريون أثرياء ، كل منهم عنده بدلاً من العربة اثنتين أو ثلاث . ولكن توجد منطقة فقيرة جداً من المحطة ، سكانها يفضلون المشي ..

ثمة شكوى في لهجته ، كان يرقب الشوارع الخالية تقريباً من المارة ، الأشجار التي يندر رؤيتها بهذه الكثافة في مكان آخر ، الحدائق المسورة ، قرأ لافتة مكتوبة بحروف فوسفورية .

«احترس من الكلاب .. »

عبرت السيارة خطاً حديدياً مفرداً ، بعده اتجه السائق إلى اليمين ، أشجار كثيفة ، ظلال قاتمة ، حشائش طويلة مهملة ، في الضوء الخافت المنبعث من مصابيح متباعدة ، رأى بوابة من حديد . قبل أن يفارق سأله السائق عما إذا كان يعرف أحداً هناك في المرور ..

« أي مرور ؟ »

ينظر إليه الشاب متعجباً ، يقول :

« أنا خريج جامعة وأريد أن أعمل في الحلال .. »

يتراجع بسرعة لا تتناسب مع فراغ المكان ، هل آذى شعوره ؟

لم يقصد قط ، لكن ذهنه مشغول ، ولا يمكنه أن يفضي إلى أي مخلوق بهذا الوضع الغريب المدفوع إليه دفعاً .

ما من لافتة تشير إلى اسم المدرسة ، يرى رجلاً طويلاً ، أسمر اللون ، يرتدي جلباباً شاهق البياض ، وطاقية ، ونظارة طبية ، عندما اقترب منه تهلل، صافحه بكلتا يديه

« أهلاً بابن الناس الطيبين .. »

هل يعرفه ؟ أي حميمية تلك ؟ مامن فرصة ليستفسر أو يتساءل ، يبتسم

في خجل ، يرفع الرجل إصبعه مشهداً السماء أنه من أخير الناس ، ولولا التبرع الذي افتتح به القائمة لما دفع الآخرون أصحاب الملايين ، يقول إن عينه الآن أفضل بكثير بعد إجراء العملية ، وإنه يستطيع تمييز الألوان بعد شهرين لم ير فيهما الأبيض والأسود ، يقول إن من أجرى له العملية كان تلميذاً هنا وكثيراً ما حمله على كتفه ، ورعاه حتى تأتي أمه بالسيارة لتصحبه ، كانت تتأخر ويبقى بمفرده بعد انصراف التلاميذ كلهم ، قال إنه أبدى عناية به - وفقه الله - لكن لم يستطع تخفيض التكاليف قرشاً واحداً ، المستشفى استثماري ولابد أن يربح ، كوب الماء هناك له ثمن ..

« تصور يا أستاذ .. »

يبسط راحتيه ، متطلعاً إلى السماء ، داعياً ..

« ربنا يبارك لك في أولادك ويطرح فيهم الخير .. »

ثم يلتفت ناحية المبنى الذي لم يره منذ لحظات ..

« تفضل .. لم يبدأوا بعد يا أستاذ .. يا كريم .. »

يدركه خجل لأنه لم يستطع مبادلة الرجل الأسواني أو النوبي الأصل مودة بمودة ، وحرارة بحرارة ، كيف وهو يجهله تماماً ، لم يلتق به من قبل ، لا يذكر أنه رأى ملامحه صدفة ، ومع ذلك أقبل عليه داعياً ، ممتناً .

ما الأمر ؟

يبدأ الخوف عنده ، يتداخل بحيرته ، بفضوله ، أما سخريته الكامنة التي قابل بها المظروف عندما تسلمه أول مرة فلم يعد لها أثر ، ماذا ينتظره ؟

عند باب القاعة رأى سيدة أربعينية تقف إلى جوار منضدة مرتفعة فوقها دفتر مفتوح ، أومأت مرحبة ، إن أي استفسار سيبدو غريباً الآن ، تماسك حتى لا يبدي أي دهشة مبالغ فيها ، خاصة عندما سألته بود عن المدام ؟

في تلك اللحظة بدأ يمتثل لما يلاقيه ، لكن عند لحظة معينة سيتحدث إلى الناظرة عن غرابة الوضع ، لابد أن دهشتها ستكون بالغة ، كاد أن يضحك

بأسى عجيب ، طارئ عليه ، وهو يجيب مؤكداً أنها في حالة جيدة .

من لهجة السيدة وقلقها البادي أدرك أن زوجته التي لا يعرفها ، التي لم توجد في حياته قط تعاني مرضاً ما ، وأنهم يعرفون هنا ، ترى .. أهي وعكة طارئة ؟ أم أنه رقاد طال أمره حتى وصل خبره إلى هيئة التدريس ؟ يتقدم متمهلاً بين الصفوف ، المقاعد الخلفية خالية ، معظم الحضور رجال ، يتخذ بعضهم أوضاعاً رئاسية ! في حضورهم وهيئاتهم سلطة وتمكن ، نساء قليلات يجلسن متفرقات ، رائحة سيجار قوية ، ينتبه إلى أنه لم يقعد مباشرة ، يحاول استكشاف الواقع الذي يراه لأول مرة ، المفروض أنه جزء منه .

ترفع الناظرة رأسها ، تومئ ، تشير ، إليه هو ؟

يلتفت

لا أحد غيره .

تنطق اسمه الأول المكتوب على المظروف متبوعاً بلقب بك ، ليتفضل ، ليجلس ، تشير إلى الصفوف الأولى ، تبدو مصرة ، تخصه بترحيب واضح ، بحذر ، يلامس المقعد الثالث في الصف الثاني ، يرفع يده مجيباً ، تبادله الابتسام ، تتوسط المنصة المستطيلة ، ترتدي قميصاً حريرياً ، شرقي النقوش، ياقته مرتفعة ، مذهبة ، تغطي رأسها بحجاب حريري أنيق ، ملامحها قوية ، هل رآها من قبل ؟

إلى يمينها رجل عريض الصدر ، غزير شعر الرأس ، يجلس منضبطاً ، إلى يسارها آخر ، نحيل ، طويل ، إطار نظارته مذهب ، ينزلق فوق أنفه قليلاً للقراءة فقط .

يخفق قلبه خشية ، هل أخطأ عندما لزم الصمت ، ولم يعلن عن الخطأ الواقع بالفعل ؟ ، لكن ما يواجهه محير ، ثم إن الفرصة المناسبة لم تلح بعد، لكنه يخشى وقوع أمر ما لا يستطيع تحديده تماماً ، يبدو أن الناظرة كانت بدأت خطابها قبل دخوله القاعة ، وأنها توقفت تحية له ، إذ إنها بدأت

تواصل بدون ديباجة من أوراق أمامها .

تتحدث عن سور تم تعليته ، وكثافة عددية في الفصول ، وتبرعات عينية مسموح بها ، وأخرى نقدية لم يوافق عليها السيد الوزير ، وعن اتصال شخصي جرى ، بعده جاءت الموافقة ، وتقليلها من رحلات جماعية لأن ظروف المجتمع لم تعد آمنة ، بنت تختفي هنا أو هناك ، لا .. إنها تخشى على فلذات الأكباد .

ذكرت شيئاً عن غياب الرعاية ، والإغداق المالي بدلاً من العواطف والعناية ، وأشارت إلى مخاطر في النوادي ، أفلام ومخدرات ومافيا منظمة تستهدف الأبناء حتى في مدارسهم ، وأشارت إلى ما ترجو تحقيقه وما تم تنفيذه ، توسعة ملاعب التنس وكرة السلة ، ومقال نشرته في الصحف القومية تطالب فيه بإحياء نظام الكشافة ، دعت إلى مساندتها ، ولكن أهم ما تم تزويد المدرسة بأجهزة كومبيوتر حديثة ويرجع الفضل إلى ..

كلهم ينظرون إليه .

تصفيق ..

يضطر إلى الوقوف ، وجوه تبدي وداً ، أخرى متحفظة ، ينحني ثلاثاً ، يجلس بعد اكتشافه مصدر رائحة السيجار ، الصف الأول ، المقعد الرابع ، يمد الجالس ساقيه ، يبدو لا مبالياً ، ينفث الدخان القوي ، لماذا يسمحون بالتدخين، هل يبدي احتجاجاً ؟ ، لكن لينتظر حتى يرى ما يكون ، إنه الآن ليس أباً فقط ، ولكنه صاحب مبادرة وإنجاز لا يعلم عنه شيئاً ، يتطلع إلى الجدران ، لوحات ، صور لا يمكنه رؤية ما تحويه من أشخاص وتفاصيل .

جاءت الصحافة المدرسية

خمسة أسماء

يتوقف عند الثاني منها ، اسمه المكتوب على المظروف مرتبط بنادية .. إذن الابنة اسمها نادية ، ما ملامحها ؟ ما صفاتها ؟

يقطب ملامحه ، كأنه يستدعي أماني قديمة مندثرة ، كأنه يرى بقايا حلم قديم ، ابنة تقبله قبل أن تنام ، تتهلل عند رجوعه ، تسأله بمرح وفضول عما أحضره من أجلها ، احتفالاً بعيد الميلاد ، ابن يقول كل من يراه إنه يشبهه بقوة، أحياناً يتصل ببعض أصدقائه ، يفاجأ بأصوات أبنائهم الذين تجاوزوا السادسة أو السابعة عشرة ، يتساءل ، إلى هذا الحد يبلغ تأثير الوراثة ؟

يصل الشبه إلى حد التطابق ..

« نبدأ الترشيح للمجلس .. »

البند الأول في جدول الأعمال . يقف الجالس إلى يسارها ، يتجه إلى سبورة سوداء ، يكتب بالطباشير :

اسم ولي الأمر

اسم التلميذ

الفصل

ثلاث خانات متجاورة ، تتطلع الناظرة إلى الحاضرين ، تخصه بابتسامة مناسبة ، ترتفع أيدي ، يقوم كل منهم ، يواجه الآخرين معلناً اسمه ، وظيفته، يكتب على السبورة ، كذا اسم الابن أو الابنة والفصل .

ينكمش ، يكاد يتداخل في بعضه ، لوحة الصحافة المدرسية ، نادية ، لكن أي فصل ، يبدو أن له ابناً أو ابنة أخرى في مرحلة مغايرة، ربما الاعدادية أو الثانوية ، حدث ما توقعه ، تشير الناظرة إليه مبتسمة ، ينحني بعد أن هم بالقيام قليلاً باسطاً يده فوق موضع القلب .. يقول إنه يفسح المجال لحضرات الأفاضل .

«لكنها السنة الأولى التي سنكون فيها بدونك ..»

كيف يبدو الأمر إذا أصرت واضطر إلى الوقوف أمام السبورة ، لا يعرف أسماء أولاده ، أو الفصول التي ينتظمون فيها ، ينكشف أمره قبل مصارحة الناظرة ، هنا تكون فضيحة قاسية .

ملامحها آسفة ، تشير بيديها ، ما العمل إذا كانت هذه رغبته ؟

تُليت أسماء المجلس الجديد ، تصفيق ، تعلن عن اجتماع مصغر مع الأعضاء الجدد ، إذن .. سيضطر إلى انتظارها ليشرح لها ، لا يدري ردود أفعالها ، إنه ليس الشخص المقصود ، لابد أن ثمة تشابهاً مذهلاً بآخر له ملامحه ، وصفاته، وظروفه، لكن كيف وصلته الرسالة ؟ وهذا الترحيب به ؟

يبدأ خروج الحاضرين ، يقف بعضهم ، يتبادلون الأحاديث ، يتجه إلى الجدار المعلق إليه صحيفة الحائط ، يقرأ مرة أخرى الاسم الذي لم يسمع به من قبل ، المنسوب إلى ما يفترض أنه هو ، في الصور تلميذات صغيرات ، أعمارهن بين العاشرة والثانية عشرة ، إذن ..

هي المرحلة الأولى ، الابتدائية ، سطور قليلة تحت كل صورة ، جماعة الصحافة المدرسية أثناء زيارة قسم الشرطة ، جماعة الصحافة المدرسية في حوار مع رئيس جمعية المحافظة على الأشجار ..

يتأمل الملامح ، الوجوه المختلفة ، ترى .. أي منهن تحمل اسمه ؟

أين ابنته المفترضة ؟

تلك القصيرة ، النحيلة ، أم هذه الممتلئة ؟ إحداهن تشبهه ، عينان واسعتان، شيء ما، خفي لا يبين ، ربما ينتمي إليه ، لكنه تخمين يفرضه الحال

«كل سنة وأنت طيب ..»

الرجل الذي كان يجلس إلى يمين الناظرة ، قال إنها كانت تتمنى انضمامه إلى مجلس الإدارة ، خلال السنوات الماضية قدم خدمات جليلة يشعر بها ويقدرها أولياء الأمور أومأ شاكراً ، كرر ما ألمح إليه ، الرغبة في إفساح الفرصة للآخرين ، الرجل مشيراً بإصبعه

«لكن أنفاسك ستظل معنا ..»

يلتفت إلى الصور

«الحقيقة أن الجميع معجب بالآنسة الصغيرة ..

يقول إنها جريئة ، وذكية جداً ، ومتمكنة من اللغة العربية ، تلقي خطبة الصباح فلا تخطئ ، يبتسم مشيراً إليه

«طبعاً .. ابن الوز عوام .. »

إذن ما عمله بالضبط ؟ عندما تحدثت الناظرة عن أجهزة الكومبيوتر ظن أنه متخصص فيها ، يعمل في إحدى شركاتها الكبرى ، أو يمتلك توكيلاً ، الآن يلمِّح الرجل إلى تمكنه من اللغة العربية ، ما هي مهمته بالضبط ، ما عمله ، من يكون ؟

يقول إن شقيقها مجدي يتقدم، إنه أفضل بكثير من العام الماضي خاصة في اللغتين، الأساسية والفرعية، لكنه بحاجة إلى مزيد من الثقة في النفس، لو امتلك هذه الثقة سينطلق تماماً مثل شقيقه نادر الذي لا تزال المدرسة تذكره بالخير .

مجدي ، نادر

ظن في البداية أنها بمفردها ، لكن يتضح الآن أنه أب لاثنين آخرين ، طوال حديث الرجل يلتفت إلى الصور ، لو أنه أشار إلى نادية .

بالضبط .. اسمها نادية ، هكذا قرأه ، لو أنه حدد صورتها ، كيف يمكن أن يسأله عنها وهو والدها ؟ وماذا عن مجدي ونادر ؟ من الأفضل أن يبتعد قبل افتضاح أمره ، فليؤجل اللقاء بالناظرة إلي وقت آخر .

يتحدث الرجل عن مجدي مرة أخرى ، يبدو أنه يسبب بعض المشاكل ، «ثق سيادتك أننا نوليه عناية خاصة .. » .

يؤكد أنه سيضع هذه الملاحظات القيمة في اعتباره ، سيولي مجدي عناية خاصة «بالضبط .. هذا ما ترددت في مصارحتك به .. »

يومئ شاكراً ، مستمراً في ابتسامته التي يخفي بها أموراً أخرى ، يتجه إلى خارج القاعة ، في الساحة الفسيحة عدد من السيارات ، كلها حديثة الطراز ، تنطلق واحدة إثر الأخرى . يلمح داخل إحداها مدخن السيجار ،

يجلس في المقعد الخلفي ، يتحدث في جهاز هاتف أبيض اللون . لكن .. متى جاءت هذه العربات ؟ عند قدومه لم ير أياً منها ، يتجه بسرعة إلى البوابة ، يبتعد عن المبنى تهب رياح باردة ، لم يرتد المعطف ، يضطر إلى الانحناء ، كيف يصل إلى محطة القطار ؟ لا يظن أنه سيجد عربة أجرة في تلك المنطقة من الضاحية ، لا أحد يمشي على قدميه سواه ، آخر السيارات انطلقت بسرعة حادة ، يمد الخطى ، يتوقف .. هل يسمع تصفيقاً ؟

أحدهم يخطب في مكان ما ، يدنو الصوت منه ثم يبتعد ، وشيش كموج البحر ، يدرك الآن أن المسافة أطول من تلك التي قطعها عندما توجه إلى المبنى ، ما من أثر للبوابة ، للرجل الأسمر المهيب بقامته وجلبابه ناصع البياض، أشجار متقاربة ، يسمع التصفيق بوضوح ، يفسح خطاه ، مهما بلغ اتساع المدرسة فلابد أنه سيصل إلى نقطة من الطريق ، هل ينثني عائداً ، ماذا سيقول إذن للرجل الذي بدا واضحاً أنه أحد المسئولين عن المدرسة ، كان لديه رغبة قوية في التعرف على صورة ابنته ، ملامحها ، بل إن الحديث عن ذكائها وشخصيتها أثارا عنده فخراً غامضاً ، وحزناً شجياً لأنه يفاجأ بكل ما مر به أول مرة ، يتوقف ، تنتهي الأشجار والنباتات الصغيرة ، يقف عند بداية خلاء فسيح ، ما من بناية ، ما من علامة .

تصفيق ، لكنه ناء ، بعيد جداً ، يختفي ، يمسك المظروف مرة أخرى ، يقربه من عينيه ، مفتقد للقدرة على قراءة الحروف لوَهَن الضوء ، غير قادر على استعادة الاسم المطابق تماماً لاسمه كما بدا له ..

مايو ١٩٩٢

.. **عندما** اقترح صاحبه المكان هفا وترقرق، انتفض ما ظنه باد واندثر، استعاد لحيظات مارقات لم يتوقف عندها منذ زمن طويل، أمور دقاق إذا ما نطق بها وصرح عنها لن تعني شيئاً أبداً عند الآخرين، بعضها لم يلفت نظره في آنيته، إنما استرجع واستدعى بعد الفوت والانقضاء، كان توالي الظرف يجمع، أما الوقت فلا يسمح ولا يفسر! لكن مع المثول بالذكرى تنتفض حقبة وتتضح مرحلة .

تلك ابتسامتها التهادية ، المشرقة ، القادمة من أغوار نائية يعسر فهمها، تطلعها إليه ، لمعة عينيها العابرة ، حفيف ثوبها عند اقترابها ، قماش أزرق مرصع بزهور ياقوتية الحمرة ، يشوبها مس من بنفسج ، بسيط حتى ليبدو مما ترتديه أثناء إقامتها المنزلية المنزهة ، حقيبتها المصنوعة من قماش معلقة إلي كتفها ، تبرز منها صحف ، ملف أوراق ، وفي معظم الأحيان كتاب أو اثنان ، لم تخطئ مكانها قط ، تتجه إلى المقعد الوثير مباشرة ، تسند مرفقيها إليه ، من موضعها تتطلع ، يرى نظرتها نافذة ، ملطفة ، تعبر هذه السنوات كلها فكأنها لم تخب ولم تهن . معها يستدعي الطرق المؤدية إليها ، عند قدومه مشياً من الأزهر ، ميدان العتبة الذي كان عبوره نزهة وقتئذ . يؤدي إلى سور الأزبكية ، يتجاور باعة الكتب والمجلات ، يعرف الباعة ويعرفوه .

أين ذهبوا الآن بعد اختفاء المكتبات ، وتآكل السور ، وتحول المكان إلى مركز لبيع الأقراص والحقن المخدرة ، والتربص بالعابرين ؟

كان يجد الوقت ليمر على مهل مستعرضاً العناوين ، مقلباً الصفحات، شراء بعضها ،خاصة ما يمكن أن يروق لها ، مع أن معظم قراءاتها كانت بالفرنسية التي تعلمتها منذ طفولتها ، لكم قالت له باسمة

عرفت العربية من خلالك ..

يقول محتجاً ، مهوناً : لكنك تتقنينها ..

ترفع أناملها في الفراغ ـ أطواف زهرة رقيقة .. تقول موضحة : أقصد جمالها ، سرها !

حرص على الوصول مبكراً ، يمضي بخطى متمهلة خاصة عند اقترابه من الفندق . كأنه سعى إلى إطالة زمن ترقبها وانتظارها ، لظهورها حلاوة ، كان يعبر شارع الجمهورية يجتاز الممر الفاصل بين جناحي العمارة ، تطالعه لافتات مسرح مترو بول ، مع بلوغه مدخل الفندق ينتشي ، يبلغ المدى ، يكون مستعداً لتأدية المهام المستحيلة .

المبنى يدير ظهره إلى شارع الألفي، جدرانه من طوب أحمر قاتم، نوافذه خشبية مستطيلة، تعلوها شرفات مدببة الحواف، مزيج من مضمون عربي، وإطار أوروبي .

المدخل يؤدي مباشرة إلى السلم العريض، إلى اليمين مصعد عتيق الطراز، لم يتغير، واضح أنه معطل، الأتربة تكسوه وبابه الحديدي منبعج قليلاً، غير محكم .

حواف الدرجات متآكلة ، رقت في بعض المواضع ، ينتهي من ارتقاء الدرجات الأربع عشرة ، لكم أحصاهم ، مرت عيناه بكل جزء ، لو يبوح الجماد! يتوقف ليلتقط أنفاسه .

كان يصعده وثباً ، فارداً قامته ، حريصاً على ولوج البهو قبلها ، جلوسه مبدياً الهدوء ، مترقباً الدقائق والثواني ، الحق .. أنها لم تتأخر عن موعدها قط ، إذا وقع طارئ تبذل الجهد لتنبئه . أما ظهورها ، اجتيازها الهادئ ، سريانها صوبه فباعث على الترقي !

مكتب الاستقبال إلى اليمين ، لم يتغير موضعه ، مدخل البهو إلى اليسار. لم تتبدل الجهات ، لكن .. ثمة شيئاً خفياً يستعصي على الإدراك ، لا يمكنه تحديده باللفظ ، ربما إحساسه بالمكان .

يبدو البهو مفتوحاً ، مباحاً ، لم يعرفه إلا ملموماً ، متدثراً بالضوء الخافت والظلال والتوقع الجميل .

هاهم ..

يجلسون في الجانب الأيمن، لكن فوق أريكة أخرى تواجه المقعدين المتقابلين، لم تتبدل الأوضاع، ولكن ثمة أرائك إضافية في الفراغات الفسيحة.

يصافح ، اثنان تربطهما به علاقة حميمة ، أحدهما زميله منذ سنوات الدراسة الإعدادية ، افترقا عند دخول الجامعة ، لكن اتصلت المودة .

الثاني .. لا يذكر الظروف التي عرفه فيها مع عمق صلتهما ، ربما قابله في النادي الثقافي لنقابة أو جمعية الفيلم ، كان ذلك منتصف الستينيات ، عندما نشطت الندوات ، واحتدمت المناقشات وطال السهر الحميم .

الثالث .. أكبرهم سناً ، يراه للمرة الأولى ، أستاذ جامعي ، مقالاته منشورة في صحف ومجلات عديدة ، حجة في مادته ، تاريخ العصور الوسطى، عمل لمدة اثنتي عشرة سنة متصلة في الإمارات ، تقاعد بعد عودته بعامين ، لكنه مازال يعمل كأستاذ زائر في عدد من الجامعات العربية ، وأستاذ متفرغ بجامعة القاهرة ، كما أنه يدعى إلى مؤتمرات تعقد هنا وهناك ، تربطه صلة قوية بصاحبي الثاني ، ولدا في قرية واحدة لكن في زمنين مختلفين ، يتطلع إليه ، وجه غميق السمرة ، متهدل الرقبة وما تحت العينين ، إذ يميل إلى الأمام يهتز رأسه حركة شبه دائرية ، تتزايد إذا ضحك .

يقول إنه سعيد بمعرفتي بعد أن سمع عنه كثيراً، وأنه اشتاق إلى رؤيته، خاصة بعد عودته وبقائه الآن شبه متفرغ، قال إن صاحب صديقه يعتبر صاحباً له ..

اهتز رأسه بسرعة وهو يقول مداعباً : ويأخذ نفس الأقدمية ، ضحكوا ، صاحبه الأول كان يعرفها ، جاء إلى هنا مرة ، التقى بها ، كان سعيداً بلقاء

من يحب بصاحبه ، كان خصباً ، متدفق المشاعر، بادي الحماس ، لا يبدو على صديقه أنه يذكر شيئاً الان، يقول أن الدكتور يقترح عليهم لقاءاً أسبوعياً.

يقول إنه يقضى أوقاتاً طويلة بمفرده منذ عودته، عنده مشاغل عديدة، أهمها مراجعة الرسائل العلمية التي يشارك في مناقشتها ، أو التي يشرف عليها .

يشير إلى مجلد أسود يضعه أمامه فوق المنضدة ، يبرز من الورق قطعة مستطيلة من الجلد الرقيق .

يقول إن ذلك لا يأخذ جزءاً يسيراً من الوقت ، وإنه جاء قبل الموعد بساعة شرب زجاجة بيرة ، وشغل نفسه بقراءة جزء مما سيناقشه بعد أسبوع ..

يميل صاحبه الأول هامساً، اقتربا من بعضهما ، كان راغباً في مشاركتهما لكنهما يؤثران الحوار الجانبي، ما زال لقاؤه بالدكتور يمر بطور المجاملة، يقتضي ذلك البحث عن أسباب لاتصال الحديث، وهذا مضن له الآن .

يومئ متظاهراً بالإصغاء، لكنه يتطلع إلى الأريكتين المتواجهتين، لم يتبدلا، لكن .. هل تغيرت الأغطية، لون القماش بني غامق، الخشب المصقول، المتصل بالخيزران المضفور، كم تعاقبوا على الجلوس مكانه ، موضعها هل من آثار باقية منهما ؟ الأثاث باق ، طراز المصابيح ، السجاد ، لكن .. ثمة شيء ما بدأ يدرك أول ملامحه ، انه اتصال البهو بضجيج الطريق، كل النوافذ مفتوحة ، لا يذكرها إلا مغلقة ، مواربة ، يمثل دائماً عنده رطباً ، ندياً حتى في شهور القيظ ، فكأنه احتفظ بطقس خاص ، ربما كان مبعثه هي .

لا .. إنما كان عزل البهو عن صهد الطريق وضجيجه يحقق ذلك . تبرز من الجدران صناديق أجهزة تكييف ، لا تعمل ، لم يرها من قبل ، حركة السيارات وضجيج متعدد المصادر . والغبار والحر ينفذ مباشرة إلى البهو ، يكاد يطغى على الأصوات المتبادلة ، لم يعرفه إلا بصحبتها ، قالت إنها ستدعوه إلى

مكان هادئ جداً في وسط المدينة ، حميم ، أصحاب الفندق يمتون إليها بصلة، وقالت إنها اعتادت المجيء إليه ، تجلس منفردة بدون أن يضايقها أحد ، أو يتطلع إليها إنسان فضولي عابث ، تقريباً .. كان الرواد وقتئذ يعرفون بعضهم، إما شخصياً أو بالملامح ، بدا البهو كواحة استثنائية في وسط المدينة مع أن شارع الألفي المطل عليه لا تنقطع منه المركبات ، قديماً كان الترولللي باص قبل وقفه وإزالة أسلاكه بعد تعاظم الزحام ، كان الخط رقم ثلاثة وثلاثين، يصل بين امبابه والعباسية ، يذكر الرقم ..

قال إن المكان فريد مثلها ، يشعر داخله كأنه متصل ببيته ، يألفه المارة منذ اللحظات الأولى .

ابتسمت راضية، تطلعت إليه بعينيها الخضراوين البراقتين، سريعتا الحركة، عبر ربع قرن أطلت من ذاكرته هكذا ، دائماً حيث لا يتوقع أو يحتسب في ثباته ، في حركته ، في إقامته ، في رحيله ، لا يمكنه إرجاع طلتها إلى وقت محدد ، أو تاريخ بعينه ، إنما تتجاوز محدودية الزمان وتعيينه .

يقول صاحبه الثاني إن الدكتور ينوي العودة إلى الكتابة في الصحف والمجلات ، ماذا عن رأيه ؟

الحق أنه لم يعرف بانقطاع الأستاذ أو سبب توقفه، ولا يذكر آخر مرة قرأ له مقالاً، لكنه سارع قائلاً إن المناخ مناسب، يسأل الدكتور عما إذا كان الوقت ملائماً ؟

يقول إن مساحة الحرية الآن أفضل

يهتز رأس الدكتور أثناء تساؤله عما إذا كان المناخ حقيقياً ؟

يقول صاحبه الثاني إن الأستاذ لديه أفكار هامة عن قضايا مختلفة ، مثل تعمير الصحاري ، وزيادة السكان ، والطرق الدائرية حول العاصمة ، وتنشيط إنتاج وعرض الأفلام التسجيلية ، والنقل النهري ..

يتمتم بعبارات استحسان ، أن تعباً مفاجئاً يحط داخله ، لم ينم بعد

الظهر، عادة يرجع مرهقاً من عمله ، لم يعد جسده يحتمل المشاق المتصلة ، وصل الصباح بالمساء ، عندما أخبره صديقه باللقاء أفاض في الحديث عن الدكتور ، عن علمه ، استاذيته التي عرفها ، طلابه ، افتقاده بعد سفره إلى الخليج ، لقاءاً جيداً ، لكن ما شجعه اختيار المكان .

رفرف عنده ما خبا وكمن ،دخولها السريع ، اتجاهه إليها مباشرة ، مستحيل تكراره الآن . كانت تستدير حول المنضدة ، تسند حقيبتها ، تجلس في الموضع نفسه ، عند حافة المقعد ، تميل قليلاً إلى الأمام ، لا يستعيدها إلا ويرى ما يحيط بها خلو تماماً ، في البهو تتوزع الأرائك المستطيلة والمقاعد ، بعضها أصغر حجماً ، صممت الجوانب على هيئة أنصاف البراميل الخشبية ، الأبسطة يغلب عليها اللون الياقوتي المغبر ، كلها من طراز واحد ، منقوشة بوحدات هندسية متساوية باللونين الأسود والأصفر الفاتح ودرجات أخرى من الأحمر القاتم .

يقول الدكتور إنه يخشى استخدام عربات الأجرة ، ولا يتعامل مطلقاً مع المواصلات العامة . أما السيارتان اللتان عاد بهما من الخليج فيقفان تحت البيت ، في مواجهة المدخل مباشرة ، إحداهما من أحدث طراز ، ذات سقف متحرك ، لكنه لا يقود أياً منهما ، فقط يقوم بإدارة المحرك حتى لا تتوقف البطارية .

لماذا ؟

يقول إنه يعاني خوفاً غامضاً من أمور عديدة ، يخشى شغل مكانهما ، السيارات كثيرة ، والجراجات قليلة مزدحمة ، وأماكن الانتظار مشغولة

لكن .. يمكن الاتفاق بشكل ما مع أحد الجراجات القريبة .

قال إنه لم يحاول ، الأقرب على بعد ثلاث نواصٍ وأربعة شوارع ، يعبر أحدها خط المترو الرئيسي ، يخشى عبوره ، ربما يقع له حادث ما ..

يتراجع إلى الوراء، بحركة مفاجئة من قدمه يتخلص من فردة الحذاء

الصيفي، لا يرتدي جورباً، يثني ساقه تحت ركبته، بعد أن ينحني مدلكاً ما بين أصابعه .

في مساء اليوم نفسه ، وأثناء اتصاله بصاحبه الثاني أبدى دهشته من أطوار الرجل ضحك صديقه ، قال إن ما لم يعرفه أغرب ، منذ عودته وعنده أحوال شتى من الخوف والحذر ، إنه يمضي معظم وقته في البيت ، يخشى الخروج خوفاً من توقف المصعد فجأة ، أو انزلاقه فوق الدرج وإصابته بكسر يضطره إلى الرقاد ، في سنه يتسبب الاضطجاع مدة طويلة إلى وهن الرئة ، وينتج عن هذا التهاب يؤدي إلى الوفاة ، يحذر أيضاً هجوم اللصوص عليه ، خاصة أنه يعيش بمفرده منذ ستة شهور بعد سفر زوجته إلى ابنتها الوحيدة المقيمة في كندا ، والتي تزوجت من أستاذ لبناني تعرفت إليه أثناء دراستها هناك ، يشرب الماء بحذر ، يقرأ كثيراً عن تلوثها وما تحويه من ميكروبات ، أما المياه المعدنية حتى المستورد منها فبعضها يسبب السرطان ، لا يتناول أكثر من كوبين يومياً ، شتاء وصيفاً ، مهما اشتدت درجات الحرارة ، طبيب أفعاني نصحه بذلك ، لأن الماء يمثل عبئاً على القلب ، ومن الأفضل الاكتفاء بحاجة الجسم الضرورية ، إذ يركب عربة الأجرة يجلس في المقعد الخلفي متطلعاً بهلع إلى العربات المارقة ، يمد يديه بين لحظة وأخرى مستنداً إلى المقعد الأمامي راجياً السائق أن يتمهل ، خشية وقوع حادث ما يصيبه بكسر في العظام ، لا ينزل إلا بصحبة صديق ، وهذا الموعد تم بإلحاح منه فالوحدة ضاغطة ، والصحبة شحيحة ، آخر ما يقلقه ، الخوف على رصيده في البنك ، أنه يحمد الله دائماً ويشكر فضله إذ ألهمه الصواب عندما رفض إيداع قرش واحد في شركات أصحاب اللحى ، وقد جرى ما جرى بعد انكشاف أمرهم ، لكنه يسمع كثيراً عن فساد البنوك ..

يقول الدكتور :

– هذا مشهد لا يمكن أن تراه في الإمارات ..

شاب يرتدي قميصاً أسود ، فتاة طويلة ترتدي الجينز ، شعرها طويل ، في ملامحها شهوة خبيثة ، تميل إلى الوراء ، تجلس منزلقة إلى أسفل ، ممدة ساقيها ، تشعل سيجارة ، تتطلع إلى زجاجة بيرة ، مثلجة ، مغبشة وُضعت أمامها ، وطبق الفول السوداني ، تجلس في موضعها .

في المقعد الذي احتواه دائماً واستعاده مرات في ذاكرته ، وطاف به أثناء نوبات حنينه

- لكن يقال إن الخمور موجودة ..

يقول هامساً :

- كل شيء موجود .. لكن في الخفاء ..

عمر الفتاة يدور حول العشرين ، ربما لم تولد عندما جاء إلى هنا آخر مرة ، قبل سفرها النهائي ، كانا يجلسان متواجهين ، أحياناً يميل تجاهها ، بينما تتشابك أصابعها ، تدير إبهاميها حول بعضهما ، ترق ملامحها مع استمرار نظراتها ، فتبدو كأنها تتطلع صوبي من إطار أيقونة عتيقة ، أو منمنمة في مخطوط ثمين ، بمجرد جلوسها تتطلع صوبي ، ثم تطلق آهة قصيرة محملة بالدلالات ، تقلب حقيبتها المصنوعة من القماش ، أحياناً تأتيه ببطاقة مصورة جميلة ، أو مستنسخ للوحة شهرية ، أو كتاب بالفرنسية تقرأ منه صفحات رأت أن تحيطه بها علماً ، كان يصحب معه دواوين شعر قديم ، كانت تصغي إلى قراءته ، تومئ ، تلفظ آهتها المقتصدة ، لكم رددت أنها على يديه عرفت تلك القصائد كما لم تعرفها من المدرسة ..

يميل الدكتور قليلاً ، يسند طبق الخيار المقشر فوق المجلدين ..

- هل تعرف الدكتور علاء صدقي ؟

- الطبيب النفسي ؟

- نعم ..

- طبعاً .. ابن عمي ..

يتراجع إلى الخلف مردداً :

– ما شاء الله .. ما شاء الله ..

تتحرك الفتاة ، تتجرع البيرة ، لا تمسح الرغاوي البيضاء التي علقت بشفتيها ، يبدو صاحبها متمكشاً ، أقل حجماً وحضوراً ، يحيط عنقه بسلسلة ذهبية ، من شكل الجلسة أو المشية يمكنه الإحاطة بكنه صلة ما .

هل تربطهما صلة قرابة ؟

لا يظن

صداقة ؟

لكنه ماله يبدو متخاذلاً ، بل مكسور العين ؟

تنتبه إلى تحديقه تجاهها ، تتطلع ناحيته ، عيناها واسعتان ، كأنها تقول بحركة يدها وكتفها «واخدة بالي منك» . في ابتذالها شيء مثير ، تضحك ، ابتسامة جانبية موجهة إليه ، صاحباه بمنأى ، لم يلحظا شروده وتردد نظراته ، الآن .. تتطلع إليه مباشرة تتخذ أوضاعاً متتابعة ، يبدو صاحبها لا مبالياً ، أما هي فتسفر عن تواطؤ علني .

يقول الدكتور

– أتمنى لو أتيحت الفرصة لأتعرف به ..

يقول إن اسم ابن عمه في الخليج مشهور جداً ، لا تخلو مجلة من صورته ، يستطلعون رأيه في مشاكل الزواج والطلاق وأمراض الفنانات ، ومشاكل التربية ، والأمور العاطفية ، وأحياناً السياسية كما أنه دائم الظهور في البرامج التليفزيونية ، لهذا حرص على مقابلته اليوم عندما علم بصلة القرابة من صديقيه العزيزين ..

– لكن .. أهم ما لفت نظري إلى مكانته ، إشادة سمو الشيخ وكيل الديوان الأميري به ، قال على مسمع منه في اجتماع رسمي إنه أرسل طائرة خاصة إليه ليكشف على ابنه وكان شفاؤه على يديه ..

يهتز رأس الدكتور ، يبدو صوته ممتلئاً بالفقاقيع ، يود لو يحيد ببصره بعيداً عنه ، لماذا ينهمك صاحباه في حوار جانبي ؟ قشور الفول السوداني فوق المجلد الضخم كانت تنبئه بما صدر من كتب وما يقام من معارض ، وإذ تنهي ترجمتها الفورية يطلب منها ضاحكاً أن تقرأ مقطوعة بالفرنسية ، كان يحب جرس اللغة ، إيقاعها . تأنقها تمهلها ، دقتها في النطق مع جرأتها واعتدادها غير أنها تبدي خجلاً ، لكنها تلبي .

كان يبدأ حديثه بملخص الأنباء كما اعتاد تسميته فيذكر أهم ما مر به ، في عمله ، في محيط سكنه ، مع صحبه ، كان يتحدث عنهم بانفعال ، فكأنهم امتدادات له ، يتحدث عن سهراتهم في الحسين ، وصلهم الليل بالنهار ، ذهابهم إلى أعمالهم بدون رقاد ، تفيض عيناها فضولاً ورغبة في المشاركة ، لكم حدثها عن صاحبيه المشغولين تماماً عنه الآن ، كانوا يلتقون في كل ليلة . أو بعد انتهاء أعمالهم . في الظهيرة ، يجوبون شوارع القاهرة معاً ، من مقهى إلى مقهى وفي المساء إما إلى سينما أو إلى مسرح ، كانت الأوقات عامرة ، ولا يفترقون إلا مرغمين ، يصعب تدبير اللقاء الآن ولو مرة في الشهر ، يكتفون بالهاتف ، كثيراً ما يرغب في إنهاء الحديث ، العودة إلى الصمت ، بعد سفرها كانت تذكرهم بالاسم ، لم تنس حتى آخر خطاب وصله من خمسة عشر عاماً ، تطلب إبلاغهم السلام ..

– أنت لا تتصور قيمة هذا وتأثيره هناك ..

– قيمة ماذا ؟

– أن يشيد به سمو الشيخ علانية ..

– إلى هذا الحد ؟

– طبعاً .. طبعاً .. لكن ألم تنشر الصحف هنا أنه أرسل طائرة خاصة ؟

– لم أقرأ .. لا أظن ..

– خسارة .. والله خسارة ..

يتقدم النادل ، دون الثلاثين ، قميص أبيض ، بنطلون أسود ، رباط عنق أفرنجي ، كأنه يعرف الفتاة ، لم تبدل وضعها ، مزطت جسدها ، ساقاها تحت المنضدة ، أردافها تلامس حافة المقعد ، على وشك ملامسة الأرض ، زجاجة بيرة ثانية ، يصب الكوب بحذر ، على مهل ، يتطلع إليها بنظرات تحتية ، على ملامحه ظلال ابتسامة خبيثة لا تسفر تماماً ، أما الشاب فينقل البصر إلي اتجاهات شتى ، النادل يغمز بعينيه ..

– طبعاً .. ستنقل إليه ما سمعته ..

يومئ بدون نطق ، إنه مكتظ بالشجن .. ترى .. أين ذهب النادل القديم ؟ تهلله إذ يراه ، كان نوبياً عتيقاً ، يميل إلى بدانة ، عنده عرج خفيف ، يرتدي جلباباً ناصعاً ، حول خصره حزام أحمر ، يتحدث إليه قبل وصولها ، يخبره عن ابن وحيد يقيم الآن في ألمانيا ، عشقته شابة جاءت إلى أسوان سائحة ، تبعها يعمل هناك سائقاً على عربات النقل الضخمة ، يرسل صوراً ملتقطة له في بلدان مختلفة ، عنده طفلان ، الولد أكبر والبنت أصغر ، الصبي أسمر تماماً كأن أمه أيضاً نوبية ، لكن البنت تشبه أمها أكثر ، دائماً ينهي حديثه بحمد الله وشكره ، مؤكداً أنها مستورة ، وأنه لا يهمه إلا سعادة ابنه واستمتاعه بالدنيا ، أبداً .. لا يريد منه شيئاً ، إذ يلمحها قادمة يبتسم مرحباً ، يفسح الفراغ ما بين المنضدة والمقعد ، لم يسألها قط عما ترغب في شربه ، كان ملماً بما تفضله ، عندما أبدأ إسماعها الشعر يقترب ، يقف على استحياء فتدعوه باسمة ، يهز رأسه شاكراً ، يطلب أحياناً تكرار مقطع أو بيت ثم ينصرف فجأة مردداً : يا سلام .. يا سلام ..

– هل يمكنني مقابلة سعادته لأخبره بنفسي ؟

مايو ١٩٩٢

.. أحدهم .

لا يخطئهم إذ يبدأ بعضهم اقتفاء أثره . هنا .. أمام البيت يمكنه اكتشافهم بيسر . هذا المخبر بدا غشيماً ، وقف في مواجهة المدخل تقريباً ، مستنداً إلى جذع الشجرة التي نجت من عمليات الرصف المتكررة وتبليط الرصيف وجز الأشجار الأخرى ، لجأ إلى الحيلة التراثية السخيفة ، التظاهر بقراءة جريدة ، ربما تعمد ظهوره الفج بتعليمات من رؤسائه ، بغية تنبيهي أنهم لا يغفلون عني مهما مرّ الزمن .

تطلع إليه ، في لحظة تلاقت نظراتهما ، لمح ارتباكاً في ردود فعله الداخلية، لم يبد اهتماماً ، لم يظهر أي رد فعل ، لو أن هذا الموقف جرى منذ ربع قرن لنال منه الغم وأبدى الحرص واستعرض الأسباب ولزم الحرص فى ذلك الزمن القديم الذي يبدو نائياً جداً الآن كأنه يمت إلى عصر آخر ، كان لديه ما يحرص عليه ، ما يعد له العدة عند ظهورهم في أثره ، كان يرتب أوضاعاً ، ويجري اتصالات شتى ، ويتأمل أحوالاً ، لكن ظهور بعضهم على فترات الآن يثير عنده سخرية ومرارة ، لذلك قرر عند رؤيته أن يقدم على ما شرع فيه منذ زمن بعيد ، لكن صحبه عارضوه لما يعنيه ذلك وقتئذ ، كانوا حريصين ألا يقع الاستفزاز قبل المواجهة ، وعند مرحلة معينة من الأفضل أن يعينوها هم .. لكن ماذا تبقى الآن ؟

ما الذي يمكن أن يحرص عليه إلا الذكريات ؟

ضاق بهم - وبإجراءاتهم ، وإصرارهم .. سيلقنهم من خلاله درساً !

لم ينظر خلفه ، لم يبد اهتماماً وإن داخله ضيق قديم يبدأ عندما يعي أن حركاته أصبحت هدفاً لغرباء عنه . عند الناصية يقف عمال شركة الأسمنت في انتظار الحافلة ، يعرف الملامح ، يبادل بعضهم التحية أحياناً عند تلاقي

العيون ، اعتاد تكرار الوجوه لرؤيتها ولتفحصه المستمر كل من يراهم في طريقه ، خاصة حول البيت بدون أن يقصد ، ربما يكتشف أحدهم .

على الرصيف المقابل يقف رجل في حدود الأربعين ، موظف بالجامعة ، إلى جواره ابنه ، يرتدي ملابس المدرسة ، إلى جواره حقيبة مثقلة ، وكيس من النايلون يحوي لفافة ، عين وقفتهما طوال شهور الدراسة ، أمام دكان عصير القصب يقف جنود من القاعدة الجوية القريبة في انتظار اللوري ، اعتادوا المجيء وهم يرتدون الملابس المدنية ، يدخلون إلى دكان الكواء العجوز ، خلف ستارة قديمة يبدلون أزياءهم بالسترات العسكرية .

يتجه إلى بائعة الصحف ، تجلس عند نهاية الرصيف ، مكان زوجها الذي توفي فجأة منذ حوالي سنة ، يتناول الجريدة ، يقرأ العناوين الرئيسية . بنظرة خاطفة يحتوي الطريق كله ، إنه يقف هناك ، ينظر في اتجاهه بعد أن طوى الجريدة ، الغريب أنهم يتصرفون بنفس الطريقة ، الانشغال بالقراءة ، القراءة الجامدة التي لا تتحرك خلالها العينان ولا تتبدل الملامح ، أما مظهرهم فيتشابه ، مشبك القلم الذي يبدو من الجيب العلوي للقميص ، إنه في حدود الأربعين ، ربما برتبة جاويش ، ملامحه متعبة ، لحيته غير محلوقة جيداً ، وجه حقيقي لا أثر فيه لأي تنكر ، إنه يقرأ العناوين الرئيسية وأخبار الصفحة الأولى ، وإعلاناً عن وصول صفقة من الدواجن المثلجة .

لن يتجه إلي محطة القطار كعادته عند النزول في هذه الساعة المبكرة ، يعبر إلى الميدان ، تتوسطه حديقة جرباء ، متآكلة الخضرة ، تحيطها أسلاك شائكة ، لماذا أقيمت ؟ أي زهور تحمي ؟

موقف الحافلات ، موتورات دائرة تزفر دخاناً ، عدد العربات العاملة على الخطوط قليلة ، المسافة إلى العاصمة بعيدة ، أفضل وسيلة المترو لولا الزحام. يتمهل لحيظات ثم يسرع الخطى ، يستدير حول إحدى السيارات ، يعرف أنه اختفى عن بصره فجأة ، سيركبه هذا ، يتوقف أمام باب الصعود ، ينقر أسنانه

بإصبعه .

يظهر عند مؤخرة الأتوبيس، ينتابه شعور بالسخرية ، لا بد أنه يخشى قفزه المفاجئ عند بداية تحرك العربة ، يستدير بخطى بطيئة متجهاً إلى بداية الطريق المؤدي إلى الكازينو الشهير ، يقولون رن الملك كان يتردد عليه ، يستحم بالمياه المعدنية ، ويلعب القمار ليلاً محفوفاً بالحسناوات ، يمتد الطريق حتى النيل ، هناك عند زاوية مثلى ركن فاروق ، كان لديه خبراء في الجمال ، كم مرة تردد على تلك الاستراحة الصغيرة ؟ لا يدري .. ربما لم يرها قط .

عربة محملة بمصاصة القصب .يجرها حمار مجهد ، رائحة تخمر قوية ، تقل حركة السائرين ، بقايا الأراضي الزراعية ، تجمعات مساكن شعبية .

إنه مبتهج الآن ، يقوم بما فكر فيه ولم ينفذه من قبل ، أن يمشي من البيت إلى النيل ، حوالي ثلاثة كيلو مترات ، ثم متابعة السير على ضفته متأملاً أراضي طرح البحر والضفة الأخرى التي لم تصل إليها المدينة بعد ، أقعده عن ذلك الكسل أم ضمور الأماني والرغبات المؤجلة في مجملها ، أشياء صغيرة كانت جزءاً عادياً من حياته اليومية فيما مضى ، لكن يلزم التخطيط لها الآن، أما الظن بإمكانية القيام بها في أي وقت فيبقيها في حيز التمني ، لم ينظر خلفه .

كل منهما يدرك الآخر ، ظل محافظاً على إيقاع خطواته حتى عبوره الخط الحديدي المحاط بحشائش برية ، محطة بنزين ، سورمصنع أجهزة الهاتف ، تبدو المنطقة مختلفة تماماً بالنسبة لما يراه من نافذة السيارة ، إذ يمر بها راكباً ينظر إليها كمتفرج ، لا يقف عند التفاصيل ، الآن هو جزء منها . عند سور مصنع المواسير أسرع الخطى فجأة ، استمر مندفعاً إلى الأمام وكأنه يود اللحاق بشخص لا يُرى . مع نهاية سور المصنع يُبطئ فجأة ، أفراد قلائل ، بدأت نوبة العمل الصباحية ، انتظم العمال في عنابرهم ، يبتسم ، الطبقة العاملة !

كانوا في ناحية ، وهم في جهة ، لكم تبدو الأفكار والرؤى الآن مثالية ، لكن في هذه السنوات المندثرة كان الطموح قوياً والرغبة في تغيير الواقع لا تقف عند حد ، كان له ولهم في كل مشكلة صغرت أو كبرت رأي وموقف يقع الخلاف عليه أو الاتفاق ، لكم صيغت عبارات بذلك الجهد في بلورتها ..

«نحن ندين ..»

«لابد من التنديد ..»

«الهجمات الإمبريالية ..»

دائماً كانت الهجمات تأتي من جهة الإمبريالية ، لكم وزع أوراقاً طَبعت على عجل تناشد الطبقة العاملة ، هذه الطبقة التي يكتشف الآن أنها لم تسمع بهم ، ولا بأناتهم المكتومة في أقبية التعذيب وزنازين التحقيق ، يقول بصوت مرتفع ..

«من الصعب أن يعيش الإنسان حتى يرى تقوض عالم لم يقم إلا في الحلم..»

هل سمعه ؟ ، وإذا وصله ما قاله .. هل سيفهم ؟ «أي سطور سيكتبها في تقريره ؟ تلك التقارير الحاملة للأختام السرية ، والتأشيرات الغامضة ، إنها مبرر وجودهم واستمرارهم في وظائفهم ، وتقاضي رواتبهم ، لابد أن يظل أمثاله مراقبين ، مطاردين ، ينحدر الطريق قليلاً ، يغلب الطابع الريفي ، إلى الجانب الأيمن أرض مزروعة ، هيكل سيارة محترق ، محطم ، لحظة سقوطها المتأججة بالنيران والخطر ولت ، همدت .

حجر مربع ، هل يتوقف لحظات ؟

لا .. لن يلجأ إلى راحة ولو قصيرة ، يمد الخطى ، الهواء ما زال رطباً بداية النهار ، الطقس خريفي مبكر ، يقترب من نقطة التقاء الطريق المؤدي إلى الضاحية بالطريق الرئيسي القادم من الصعيد ، عربات الملاكي والأجرة وعربات النقل التي تجر مقطوراتها .

يتوقف قليلاً متحيناً الفرصة حتى يمكنه العبور إلى الرصيف الضيق المحاذي للنهر ، أشجار عتيقة ، تكعيبات عنب ، أكوام من القش . البوص ، بيت صغير من الطوب اللبن ، سيبقى إلى متى ؟

قمائن حرق الطوب ، مداخن ثلاث هامدة لا تنفث دخاناً ، يتجاوز نقطة الشرطة العسكرية ، ينحني متظاهراً بربط الحذاء ، يلتفت .. على بعد حوالي ستة أمتاريقف صاحبنا . هيئته العامة تشي بإرهاق وحيرة ، يبدو مرتبكاً ، لم يزود بتعليمات تنصحه بكيفية التصرف ، يتوقف متطلعاً إلى النهر ، مركب شراعي يسري متمهلاً ، الأشجار والنهر والضفة البادية والأهرام القائمة عند حدود الصحراء ، منذ فترة طويلة يتمنى المشي إلى جوار النهر ، لحسن حظه ، ولسوء حظ هذا المخبر أنه في إجازة طويلة ، كان ينزل إلى القاهرة بدون هدف، يلوذ بالمقهى ، بزحام الطرقات ، بعناوين الكتب فوق أرفف المكتبات ، بالفراغات التي تتخلل غابات الأسمنت والألمونيوم والزجاج والحراس المدججين، يتحدث إلى من لا تربطه بهم صلات حميمة ، أصدقاء الصدفة من رواد المقهى يلتفت فجأة

يضحك بصوت مرتفع ، مباغت ، متشف ، الرصيف خالٍ إلا منهما ، يقف صاحبنا مولياً وجهه صوب النهر ، متظاهراً بقراءة الجريدة !

في نفس التوقيت يخرج من البيت ، يلمحه جالساً فوق حجر أمام البيت المجاور ، من نافذة الطابق الأول تطل امرأة ممتلئة ، تنظر إليه ، ربما تتساءل عن الدافع من جلوسه ، الجريدة بين يديه ، إلى جواره كيس من البلاستيك داخله رغيف مطوي على لفافه ربما جبن ، أو طعمية ، لابد أنه استيقظ مبكراً حتى يصل هنا مثل هذه الساعة ، بالتأكيد ليس من قوة القسم المحلية ، لابد أنه يتبع إدارة المباحث المركزية ، منها يبدأ تحركهم إلى جهات شتى بدون إبلاغ المراكز المحلية .

يسرع بخطى سريعة ، قصيرة ، يمر أمام دكان الكواء ، أبواب الجمعية

التعاونية ما تزال مغلقة ، لم تفتح بعد ، أمامها نساء يقعدن بترتيب ، يمسكن أوعية صغيرة مختلفة الأحجام ، لابد أن شيئاً ما سيصل اليوم ، أرز ، سمن ، صابون .

بالأمس بعد عودته ، بعد أن أغلق الباب واحتواه المكان أدركه ضيق ، قلق وحزن غامض ، يعرف هذه المشاعر إذ يدرك أنه مراقب ، أنهم يرصدون حركاته، يتلصصون على حياته اليومية ، في الماضي كان ذلك جزءاً من الواقع، وعنصراً لمردود حركته ، كان يتقبله كقدر لا مفر منه ، لكن ما المبرر الآن ؟ ، ربما يريدون التأكد من استمرار خموده ، أمثاله يطلقون عليهم العناصر الخامدة ، في الماضي كان من العناصر النشطة ، وما بين المصطلحين عوالم وأحوال !

ينصح الزملاء القدامى باستمرار العادات ، وعدم الحيدة عنها ، حتى لا يثير الريب ، لكنه الآن يواجه بمفرده بعد أن انفرطت البنية ، وأصبح مجرد حلقة غير متصلة بما قبلها أو بعدها ، لا .. سيأتي كل ما يحيرهم ، لن يتجه اليوم إلى النيل ، بل إلى الجهة الأخرى . إلى الصحراء ، إلى الطريق الجديد السريع ، يندررؤية أحد السائرين به . ما من رصيف على جانبيه . إنما سيارات مسرعة مارقة . يصل إلى موصوفة زمن الاحتلال ، أسفلت متشقق تبزغ منه حشائش خشنة المظهر ، يلمح حرباء في طول راحة اليد ، هوجم المكان بالطائرات الإسرائيلية خلال حرب الاستنزاف ، كانت المقاتلات تجيء من جهة الشرق على ارتفاع منخفض ، بطول الطريق .. باستطاعته الآن الإصغاء إلى إيقاع خطواته خلفه ، لا يبذل جهداً لإخفاء نفسه ، أو اقتفاء أثره من مسافة معقولة .

الخطى تسرع ، تقترب ، إنه يحاول اللحاق به ، يقصده مباشرة ، يصبح وراءه ، ماذا سيحدث ؟ هل أخطأ بسلوك هذا الطريق المقفر ؟ لابد أنه مسلح ، يمكنه إطلاق النار ، حجته أنه لاقى مقاومة ، كان يدافع عن نفسه ، يتردد

قليلاً بينما يصغي إلى صوت حنفية ماء تسيل باستمرار داخل دورة مياه في المعسكر الخاوي ، لابد أنها لم تتوقف منذ سنوات ، يستدير فجأة مستنفراً ، متأهباً للنزال ..

في مواجهته تماماً

إنه أكبر سناً مما قدر ، لابد أنه تجاوز الخمسين .

- اعمل معروفاً .. يكفي اليومين الماضيين ..

- من أنت ؟

- لا داعي يا أستاذ للسؤال .. أنت تعرفني كما أعرفك

- مالك ومالي ..

- أستاذ .. أنت تعرف .. ما أقوم به مجرد روتين .. لكنك تتعمد تطليع روحي !

ملامحه منهكة ، لاهثة ، متوسلة ، هل أخطأ التدبير ؟ ، ألم يتصرف بقسوة . لكن هذا الوجه المثير للشفقة الآن من الممكن أن يصبح شرساً ، جلاداً، إذا تلقى الأمر ، من الممكن لهذه اليد أن تصفع ، أن ترفع سوطاً أو تهوي بعصا ، وهذه القدم المرتعشة قادرة على الركل وتوجيه الإهانة ، ألم يمر به هذا كله ، ألم يعرفه على يد أمثاله ؟

لكن .. الموقف غريب ، لم يسمع عنه يوماً من أحد زملائه القدامى ، لكنه في مواجهة إنسان مرهق ..

- من أنت ؟

- أنت تعرفني يا أستاذ .. أنا مخبر في الإدارة ، تعلم أنني أراقبك منذ أول يوم .. ولكن ..

- ولماذا تراقبني ؟

- ليست المرة الأولى يا أستاذ ، كلك نظر ، إنه مجرد إجراء روتيني .. أيام قليلة وينتهي كل شيء ..

يبدأ المشي ، يتلفت المخبر حوله ، يبدو قلقاً ، ليس طبيعياً أن يمشي إلى جواره ، يخشى أن يراه أحدهم ، أحياناً تكون هناك مراقبة على المراقبة ، كما أن المكان قفر ، معزول ، وجودهما معاً مثير للشبهات .

لا يغيب هذا كله عنه ، يمد علبة السجائر ، يبسط يده ملامساً صدره ..

– خذ .. هنا لا يمكن لأي إنسان أن يراك ..

– ربنا يستر

يميل منحنياً ، مبتعداً عن الرياح ليشعل السيجارة

– أين تسكن ؟

– شبرا

– شبرا ؟

– أي والله .. آخر شبرا

– وتجيء إلى حلوان لتراقبني ..

– أوامر يا أستاذ

– متى تستيقظ ؟

– الفجر .. أخرج من البيت في الظلام ..

– أفطرت ؟

– لا .. الوقت لا يكفي .. يجب أن ألحق بأول قطار ، لكن المرأة الله يسترها جهزت لي رغيفاً بما قسم .. لكن سيادتك قطعت نفسي .. لم تتح لي فرصة لكي أفطر أمس وأول أمس ..

– عندك أولاد ..

– أربعة

يتوقف فجأة ، يشير إلى الممر الذي ضاق فجأة قبل انتهائه إلى الطريق الرئيسي

– يكفي هذا يا أستاذ

يخشى أن يراه أحد زملائه في الإدارة ، في هذا خراب بيته ، لكن الأهم أن رأسه به ثقل ، عنده دوخة ونفسه ثقيل ، يود الجلوس بأي مقهى ليشرب كوباً من الشاي ، يتناول إفطاره ، لم تدخل بطنه لقمة حتى الآن ، يكاد يشعر بالخجل ، يوشك على النطق باعتذار لما سببه من إرهاق ، بالطبع لا توجد مقاه قريبة ، لكنه على مهل سيرجع إلى البيت ، إذا شعر بإرهاق فلينادِ فقط ، عندئذ يتوقف حتى يلتقط أنفاسه ، ويستريح ..

عند نهاية السلم يرفع يده بالتحية ، يمسك بالصحيفة التي يتظاهر دائماً بقراءتها ، عدد قديم لا يتغير ، هكذا قدر ، قال بالأمس إنه يفضل اللقاء داخل البيت ، حتى لا يراه أي عابر ، سأله عما إذا كان هناك مخبر آخر ؟ ، بسط يديه ، وهل هذا معقول ؟ لو أنه تأكد من ذلك ، هل كان سيقف ويتحدث معه ، لا بالطبع .. إنهم يعرفون بعضهم ، لكن الاحتياط واجب ، ربما مر أحدهم مصادفة ..

- سأخرج بعد ربع ساعة ، أركب القطار ، أنزل في المحطة الأخيرة ، أذهب إلى البنك ، لأطمئن على تحويل المعاش ..

- معاش .. ما زلت صغير السن يا أستاذ ..

يبتسم

- اسأل ضباطك عن السبب

- شدة وتزول .. إنهم يذكرونك بالخير

- كفانا الله شرهم وشرك أيضاً ..

يبسط يده ملامساً موضع القلب

- والله أنا غلبان يا أستاذ .. هل ستذهب إلى أماكن أخرى غير البنك ؟

- نعم .. إلى مقهى الندوة الثقافية

- في باب اللوق ؟

- تعرفه ؟

- أعرف مقاهي وسط المدينة كلها ..

- سأكون هناك ، لن ألتقي بأي إنسان ، أدخن الشيشة .. في الثالثة ستجدني هنا ..

يدون في دفتر صغير ، يرفع يده بالتحية ، يستدير متأهباً لنزول السلم ، لكنه يتوقف ، يبدو متردداً ، إنه يسأل ، يستفسر فقط إذا كان يعرف أي موظف في فرع الجمعية المجاور ، الفرع فيه كل شيء ، بيض ، صابون ، الدجاج مرتان في الأسبوع ، الزحام هنا قليل بعكس شبرا ، لو أمكنه أن يوصي أحد الموظفين به إنهم يشترطون البطاقة التموينية ، بطاقته مسجلة في شبرا ..

- لا والله .. أعتبر نفسي غريباً هنا ، لم يمض على إقامتي في حلوان إلا سنة ، أنا غريب هنا ..

- طيب .. عندك بطاقة تموين

لا .. لم أستخرجها ..

- أنت تفرط في حقك يا أستاذ ..

- أنا وحيد .. لست بحاجة إليها..

يأسف لأنه أزعجه ، لكن الجمعية هنا فرصة ، والأولاد آخر النهار ينتظرون رجوعه بأي حاجة ، توجد جمعية تعاونية في الإدارة بها كل شيء ، لكن الحصص توزع على الأكابر ، لا يتبقى إلا أكياس الفول والعدس ..

- حتى العدس لم يعد يظهر ..

رنة واحدة ، مختصرة ، حذرة .

من في هذه الساعة المبكرة ؟

إنه يضيق بالزيارات المفاجئة ، يتحفز ، في الماضي كان يتوقعهم كان يتخذ الأهبة ، ما من أوراق يمكن أن تدينه ، ما من عناوين يمكنها أن تصبح موضع مساءلة واستجواب ، من تلك السنوات اكتسب عادة حفظ أرقام

الهواتف ، يكفي أن يدير الرقم مرة واحدة ليحفظه ، ليثبته في ذاكرته ، عدا الهواتف العمومية ، منذ بدء وعيه والحيطة والحذر مما تلقاه وترسخ عنده ، لا يكتب خطاباً إلا توقع فتحه والإطلاع عليه بعيون من يجهل ، لا يتحدث في الهاتف إلا وضع في اعتباره أن طرفاً ثالثاً يتنصت ، يتفحص كل كلمة ، رغم مرور الوقت ، ودبيب الهمود ، واستقراره بين العناصر الخامدة إلا أن حذره القديم لم يهن .

يقترب من الباب ..إنه هو ، ماذا جاء به تلك الساعة المبكرة ؟

- معك آخرون ؟

يهز رأسه نفياً ، يخفض صوته ، يقول إنه يعتذر لأنه سبب له إزعاجاً ، لكن موظف الجمعية وعده بدجاجتين وكيلو زيت ، اشترط عليه المجيء مبكراً، بمجرد فتح الجمعية ، هذا يعني أنه لن ينتظره عند المدخل ، ماذا عن اليوم ؟

- اطمئن .. لن أخرج ..

يتطلع متشككاً ، لو حدث العكس سيتسبب ذلك في مصيبة له ، لن أفارق البيت .. يمكنك أن تكتب في التقرير أنه ظهر في الشرفة عدة مرات ..

- طول اليوم بمفردك يا أستاذ ؟

- اعتدت ذلك .. ألم أقض ثلاثة شهور عندكم في الحبس الانفرادي ..

- لكنك كنت مجبوراً ..

- والآن الجبر من عندي ..

- والله حالك يصعب عليّ ..

- تعال .. تعال اشرب شاياً معي ..

إنه قديم ، وذو خبرة في المراقبة ، كان يعمل في إدارة المخدرات قبل نقله إلى المباحث العامة ، العمل في المخدرات كله مكسب ، في منتهى الراحة ، أوله معروف وآخره محدد ، لكن مع السياسيين الأمور ضنك ، يلزم الحذر والحركة مختلفة ، يرسلونه إلى أماكن مختلفة ، إلى حوار فقيرة جداً ، يعيش

فيها شبان لا يمتلكون إلا الكتب ، ولا شيء إلا الكتب . آخرون يعيشون في الزمالك وجاردن سيتي ، بعضهم كان يرتدي ملابس السجن منذ سنوات ويحمل مقاطف الحجر ، والآن هم في مقاعد الوزارة .

- عقبى لك يا أستاذ

- يا رجل حرام عليك ..

- ألست منهم ؟

يقول إن العمل محير ، أحياناً يقضي يوماً بليلة في مواجهة مبنى من طابق أو عمارة ضخمة ، أو في مقهى ، لا لشيء ، إلا لمجرد رصد خروج هذا أو التنصت على ذاك ، لكن أيام المخدرات ، يا سلام ، أي أيام هذه ، الأمور واضحة وكلامهم مفهوم ، خلو من الألفاظ الصعبة المكلكعة ..

- أصحابك يتكلمون بلغة لا نفهمها عندما نصغي إليهم .. تحيرنا عند كتابة التقارير ..

- حتى لا يكون عملك سهلاً ..

للأسف ، ليس لديه واسطة تعيده إلى إدارة المخدرات ، يبدو أن أحدهم قرر إيذاءه عندما نقله إلى الإدارة ، يعرف أن بعضهم كان يغار منه .

يتوقف لحظات ، يبدو أنه استرسل في الحديث ، يقول متداركاً ، إنه لو أراد تكوين ثروة لفعل أثناء عمله بالمخدرات ، كان يمكنه أن يحيل نفسه إلى المعاش ، أن يفتح دكاناً صغيراً يكسب منه أضعاف مرتبه الآن ، لكن الأهم أن يصبح سيد نفسه ، لا يأمره هذا ولا ينهره ذاك ، مع أنه متقدم في السن ، في عمر آبائهم ، لكن طوال عمره ، لم يدخل جيبه قرش صاغ واحد من الحرام ، لم يقبل الحرام قط ، يريد أن يربي أولاده من الحلال ..

- الحلال هو الذي يبقى يا أستاذ ..

- طبعاً ..

- والله أنت طيب جداً ، ولا أعرف لماذا أحكي لك هذا كله ؟

- يا سيدي القلوب عند بعضها ..

- لكن البيت بارد يا أستاذ .. لو معك ابنة حلال ترعاك وتنجب لك من يملؤه حياة ..

القطار فاتنا

- ما زلت في حيلك .. أعرف من تزوج بعد الستين وأنجب .. الأولاد زينة الحياة الدنيا يا أستاذ ..

- عندك عروسة ..

يميل إلى الأمام

- ألف من تتمناك يا أستاذ ..

صباح كل يوم ، في السادسة أو السابعة يرن الجرس ، يدخل ، إنه يعرف البيت ، يتجه إلى المطبخ ، يعد الشاى أثناء تناولهما الإفطار يخبره بما سيفعل طوال النهار . الأماكن التي سيقصدها وأحياناً الأصدقاء الذين سيلتقي بهم ، لم يكن يطلب أسماءهم إنما أوصافهم ، هذا طويل وذاك قصير، أشقر ، فاحم الشعر ، قصير ، بدين .

- المفروض أنني لا أعرف أسماءهم ..

يدون بعض التفاصيل ، بعد أسبوع بدا سعيداً لأن موظفي الجمعية عرفوه، يبدو أن المدير ظنه مخبراً من مباحث التموين ، أنه يحصل الآن على ما يريده من سكر وجبن وصابون ، وأسماك مجمدة ، عنده الولد الأصغر يعشق السمك، لا ينتظر انتهاء أمه من قليه إنما يجلس إلى جوارها ويأكل أولاً بأول

- يا سيدي ربنا يخلي ..

- المهم .. ربنا يقدرنا عليهم ..

ما يقضّ مضجعه أن الولد الأكبر حصل على دبلوم التجارة منذ عامين ولم يعمل بعد ، طوال سنوات الدراسة لم يكن يبخل عليه بشيء ، كاد أن يبيع ملابسه في سوق الكانتو لدفع المصاريف اللازمة للدروس الخصوصية ، لكن

الآن قعدة الولد ألعن من بقاء البنت في البيت ، يخاف عليه ، من المخدرات ، من أصحاب النقوين ، لكن الولد جوهره طيب ، وهو يراعيه دائماً ، إنما اليد العاطلة وحشة ، منذ أسبوع أمه قالت له : اخرج اعمل في أي شيء هات لك حسنة تساعد بها أبوك ، الولد خرج ودمعه على خده ، لحقه في الجامع وراضاه، زعق لامرأته . ممكن الولد يطفش ..

– حصلت والله يا أستاذ .. واحد بلدياتي يبحث عن ابنه منذ أربع سنوات، ضاع أثره ، حاولنا نساعده ولا فائدة .. الولد خرج بسبب كلمة .. كلمة سمعها من أبيه .. وضاع ..

– هل بحثتم عنه بجدية ..

– والله لم نقصر يا أستاذ .. نشرنا صوره في الصحف ..

– مأساة ..

قال إن ابنه عاقل ، لكن مكثه في البيت ضار ، ماذا يمكنه أن يفعل ؟ ، بعد لحظات صمت تساءل عما إذا كان ممكناً مساعدته ، إن بعض صحبه الذين كانوا معه في المعتقل يشغلون مراكز مرموقة الآن ، بل إن بعضهم عنده شركات ويظهرون في إعلانات التليفزيون ، إنه يعرفهم ، صحيح أنهم كانوا شيوعيين ، لكن الله تاب عليهم ورفعت أسماؤهم تماماً

– عقبى لك يا أستاذ ..

ابتسم صامتاً ، تساءل الرجل عما إذا كان ممكناً مساعدة ابنه من خلال أحدهم ، لابد أنهم يعرفونه ويحرصون على تلبية مطلب بسيط كهذا .. عمل بسيط يكسب منه حتى مصروفه اليومي .

– لكن صلتي انقطعت بهم يا حاج ..

يطرق حزيناً ، يبدو أنه لا يصدق ، في يوم تال استفسر عما إذا كان يتردد على المحافظة ؟ ، لقد علم بوسائله الخاصة بعيداً عن الإدارة والله ، أن أحد أصحابه المقربين يعمل في مكتب المحافظ ، قال إنه يسكن في غرفة واحدة ،

غرفة يعيش فيها مع امرأته وأولاده الأربعة ، هل يتصور أنه لا يجامع امرأته إلا في دورة المياه

- حلالي أقضيه في دورة المياه .. تصور يا أستاذ ..

- وضع صعب ..

أي صعوبة ؟

كل ما يريده شقة من حجرتين ، واحدة للأولاد ، وأخرى له مع أمهم ، سمع عن مبانٍ ستوزعها المحافظة قريباً على من تهدمت بيوتهم ويقيمون في المساجد ..

- لكن .. هذه مساكن للإيواء السريع .. يعني حالات الطوارئ ..

- طوال عمري أعيش في طوارئ والله أنا حالي أصعب ..

اليوم لم يأت ، لم يرن الجرس ، الساعة الآن الثامنة ، انتهت نشرة الأخبار في الإذاعة البريطانية ، أول أمس بدا ساهماً ، قال إن حضرات الضباط أثنوا على جهده ، على تقاريره ، أظهروا الرضا ، يعني هذا أن مهمته سوف تنتهي قريباً ، وأنه لن يقابله مرة أخرى ، والله لم يكتب كلمة زائدة ، التزم بما أملاه عليه . ربت على كتفه ، قال إنه يصدقه ، في لحظة معينة ظن أن اقترابه منه جزء من خطة ذكية لاقتحام عالمه ، لكن حدسه الخفي استبعد ذلك تماماً .

لم يخبره بتخلفه اليوم ، لابد أن أمراً جد ، خرج إلى الشرفة ، على الرصيف المقابل عربة أجرة ، صبي يغسلها ، يرش الماء من جردل موضوع فوق الأرض ، يعرف صاحب السيارة ، يسكن البيت المجاور ، يمد البصر متطلعاً إلى الرصيف ..

لا أحد

ثلاثة .. لا يمكن أن يخطئهم ، إنهم أصغر سناً ، أعمارهم متقاربة وربما رتبهم أيضاً رؤوسهم حليقة ، عضلاتهم بارزة ، كأنهم على وشك الانقضاض ، في وقفتهم تأهب وقسوة ، أحدهم أمام البيت مباشرة .

الثاني يقف فوق الرصيف المواجه .

الثالث عند الناصية يلامس خصره بيده

نظراتهم سافرة ، لا يمسكون صحفاً يتظاهرون بقراءتها .

يتمهل ..

يطالعه وجه المخبر القديم المتعب ، انتقاله السريع من موضوع إلى آخر ، ترى .. أين الآن ؟

يبدل خطط يومه ، يفيض بالتحدي القديم ، لن يحتمل أكثر ، آن لهذا كله أن ينتهي ، يلامس ذقنه بأصبعيه مقطباً عينيه ، مفكراً في الخطوة التالية ..

كتابة أولى – ١٩٨٥

كتابة ثانية – ١٩٩٢

لماذا طار العصفور

(١)

.. تأهب الأب للخروج فاحتضن ميدو ساقيه . شم رائحته . أراده أن يبقى، ألا يغيب عنه كما يحدث كل يوم .. من قبل كان يبكي لكن ذلك لم يمنعه من الخروج في كل مرة صاح اليوم ..

« أبوس بابا .. »

انحنى ، قبل ميدو ، أحدث ميدو صوتاً بشفتيه ، لكن الأب فتح الباب ، داعب وجنته ، لوح بيده ، كما يحدث كل يوم ..

(٢)

.. فوق السطح أشارت الأم إلى القرص البرتقالي الراحل وقالت إنها الشمس . نظر ميدو إلى الفضاء الفسيح ، بعد لحظة قال إنه يريد احتضان الشمس . قالت الأم إنها ذاهبة إلى بيتها . قال ميدو إنه يريد أن يقبل الشمس .

ضحكت الأم ، وقالت إنها بعيدة ابعث إليها بقبلة هكذا ، هز رأسه هزة خفيفة . قبل الفراغ باتجاه الشمس لكنها استمرت في الانزلاق البطيء عند الأفق

(٣)

وقفت سهير ابنة المرأة التي تبيع اللبن ، طولها يماثل طوله ، يتطلع إليها ممسكاً برداء أمه ، تنظر إليه بينما أمها تصب اللبن . كلما خطا إلى الأمام ، تدفعه أمه إلى الخلف تطلب منه أن يتوارى ، ألا يطل برأسه حتى لا يلفحه البرد ، ضاق الليلة برده إلى داخل البيت .

«أبوس البنت .. أبوس البنت وتلعب معايا .. »
ردت أمه ..
«ادخل يا ميدو .. »

(٤)

قالت أمه للسيدة البدينة إن الدنيا أحياناً تكون موحشة
حلوة .. اصغ إليها لماذا تكون الدنيا مرة موحشة ، ومرة
مرات قبل أن تنتبه إليه .
«أبوس الدنيا .. »
بوس ياميدو
تلفت لم ير الدنيا ، عاد ليقول إنه يريد أن يقبل الدنيا وحـ
وحشة ..
«قلت لك بوس ياميدو .. »
لكنه عندما لم ير الدنيا التي يرغب في احتضانها وتقبيلهـ

(٥)

اندفع داخل الصالون ، حبا تحت المقعد ، حاول الصعود
تراجع إلى منتصف الغرفة ، تطلع إلى صورة أمه المعلقة فو
يديه وراء ظهره صاح مخاطباً الصورة ..
انزلي ياماما .. انزلي وأبوسك .

(٦)

قبل يد الجارة ، وقالت الأم إن ميدو يريد تقبيل أي شيء !
المكنسة والثلاجة والحصان الخشبي ، والشجرة الموجودة تحت

النادي والشارع ويبكي لأنها لم تنزل له القمر ليقبله ، وابنة البواب ، وزجاجة الدواء ، وكتب بابا حتى حذاء بابا . منذ يومين أمسك به قال .. بابا حلو . قال .. حذاء بابا حلو ، ثم قال أبوسه .. يقعد معايا .. فنهرته ..

(٧)

حط العصفور فوق بلاط الشرفة ، قفز يميناً ، فقز شمالاً . أطلق محمد صرخة رفيعة .

كوكو . كوكو من ذراعيه تجاه العصفور . أنا أحب كوكو .. طار العصفور مبتعداً . حار ، أراد أن يحتضن العصفور . أن يقبله . أن يقبله . لماذا طار العصفور ؟

أغسطس ١٩٧٩

الفهـرس

قائمة إصدارات مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر

مخابرات ومخدرات	شفيق أحمد على
المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد على
القدس بين الغزو الصليبى والاستيطان الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
الماسونية	خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
الصهيونية السياسية	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
يهود يحاربون إسرائيل	ياسر حسين
السلام القاتل	محمد خليفة
البديل الإسرائيلى للعروبة	سيد زهران
مشروع للانتحار القومى !	مصباح قطب
غزة أريحا - المأزق والخلاص	عبدالقادر ياسين
غزة أريحا - التسوية المستحيلة	چورج المصرى
صفقة التسوية الأردنية الإسرائيلية	د. السيد عوض
سلام أم استسلام	د. أحمد الصاوى
أوهام السلام	عبدالخالق فاروق
بروتوكولات حكماء صهيون	
التلمود	
التناقض فى تواريخ وأحداث التوراة	محمد قاسم
القوة العسكرية الإسرائيلية	جمال الدين حسين
سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر «إغراق إيلات»	جمال الدين حسين
الإختراق الإسرائيلى للزراعة فى مصر	صلاح بديوى
إختراق الأمن الوطنى المصرى	عبدالخالق فاروق
المياه العربية بين بوادر العجز ومخاطر التبعية	عبدالله مرسى العقالى
من يحمى عروش الخليج (النفط والتبعية)	د. أحمد ثابت
إعدام صحفى	سعيد حبيب
الكرامة الضائعة فى الصحراء	حمادة إمام
أزمة الانتماء فى مصر	عبدالخالق فاروق

مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
التطرف الدينى ومستقبل التغيير فى مصر	عبد الخالق فاروق
كارثة المعونة الأمريكية	جمال غيطاس
العلاقات الليبية - الأمريكية	د. السيد عوض
بان أمريكان ١٠٣ (اتهام ليبيا أم اتهام أمريكا)	مجموعة مؤلفين
حلايب.. نزاع الحدود بين مصر والسودان	أحمد محجوب
الإخوان والعسكر	حيدر طه
القوى الخارجية فى السودان	د. السيد فليفل
نظم الحكم العنصرية فى جنوب أفريقيا	د. السيد فليفل
الشيشان	عمرو ناصف
القصص الشعبى فى مصر	إعداد: خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة المدنية	
صور من رمضان	د . أحمد الصاوى
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د. أحمد الصاوى
النقود الإسلامية فى مصر	د. رأفت النبراوى
المرأة التى أحبها عبد الناصر	شفيق أحمد على
عبد الناصر .. والإخوان	سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم
عبد الناصر .. هذا المواطن	سليمان الحكيم
برلنتى والمشير (القصة الحقيقية)	سيد زهران
عبود الزمر .. حوارات ووثائق	أحمد رجب
اعترافات الأميرة جيهان	ماجدى البسيونى
الأعشاب الطبية	د. موسى الخطيب
الجنس والشباب الذكى	كولن ولسون ترجمة : أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس	جارى جوردون ترجمة زينات الصباغ
الصوت والضوضاء	د. مصطفى عبد المطلب
ماهى السينما	صلاح أبو سيف

قضايا المونتاج المعاصر	د. عفت عبد العز[illegible]
عزة فى الفضاء (أطفال)	أم كلثوم إبراهيم
مهرجان (سلسلة للأطفال والفتيان)	[illegible]
العصفور (سلسلة للأطفال والفتيان)	[illegible]
البديل الناصرى (قراءة أوراق التنظيم)	سيد زهران
عن الناصرية والناصريين	مجدي رياض
الأقليات التاريخية فى الوطن العربى	د. أحمد الصاوى
الناصرية والتاريخ	سيد حسان
الناصرية .. الأيديولوجيا والمنهج	سيد زهران
التنمية المستقلة فى النموذج الناصرى	جورج المصرى
فلسطين الانتفاضة.. جدل الوطن والأمة	د. أحمد ثابت
كاريزما الزعامة الناصرية	د. السيد الزيات
الناصرية والتجديد	مجدي رياض
الكلمة والسيف .. محنة الرأى فى تاريخ المسلمين	صالح الوردانى
الحركة الإسلامية فى مصر الواقع والتحديات	صالح الوردانى
الحركة الإسلامية فى مصر واقع الثمانينات	صالح الوردانى
المسيح فى الإسلام	ترجمة عادل حامد طارق وجاكلين إسماعيل
الحكومة والسياسة فى الإسلام	ترجمة : سيد حسان
الوجيز فى بداية التكوين	عبد العزيز محمد ، مصطفى الخولى
رسالة التوحيد للإمام محمد عبده	تحقيق د. محمد عمارة
الإسلام والعروبة	مجدي رياض
كيف تقرأ القرآن	محمد محمود عبدالله
كيف تجود القرآن	محمد محمود عبدالله
التربية الإسلامية	محمد محمود عبدالله
القرآن : حل مشاكل الأمة	محمد محمود عبدالله
قبس من نور الأسماء	محمد محمود عبدالله
نظرات فى نزول القرآن على سبعة أحرف	محمد محمود عبدالله
مطربة الغروب (قصص قصيرة)	جمال الغيطانى
مخلوقات الأشواق الطائرة (قصص قصيرة)	إدوار الخراط

حرب بلاد نمه (قصص قصيرة)	خيري عبدالجواد
حكايات الديب رماح (قصص قصيرة)	خيري عبدالجواد
هذه الليلة الطويلة (مسرحية)	د. أحمد صدقي الدجاني
ليس هناك ما يبهج (قصص قصيرة)	عبده خال
لا أحد (قصص قصيرة)	عبده خال
مملكة القرود (مسرحية)	محمود عبدالحافظ
أحزان رجل لا يعرف البكاء (قصص قصيرة)	خالد غازي
الشاعر والحرامي (قصص قصيرة)	عزت الحريري
رشفات من قهوتي الساخنة (قصص قصيرة)	محمد محي الدين
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
قصائد حب عراقية	البياتي وآخرون
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
صلاة المودع	صبري السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
إذهب قبل أن أبكي	د. لطيفة صالح
اللعبة الأبدية ...	محمد الفارس
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدي رياض
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
العجوز المراوغ يشد أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد
في مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد

الأمر غريب . يندر سماع مثله . البدايات المؤدية عديدة ، لكن معظمها محير ، غير دال . أحياناً .. يكون اللجوء إلى القصى النائى ، مساعداً على القرب ، لذلك فلنتبعه .. إذ أن

أول ما يرد عليه تلك الأبسطة . لولا سداها ولحمتها ونقوشها ، لولا بذله سنوات عمره فى إتقانها ، تعلمها وتعليمها لما عرف الطريق إليها ، لما انتظم فى مدارات أنوثتها .

الأمر يحتاج إلى تفصيل ، ولو بدأنا من نقطة تمحوره لاستغلق كل شيء ، ولوقعت العكوسات ..

مركز الحضارة العربية